في قلب نجد والحجاز

سلسلة مقالات سياسية، اجتماعية دينية، تتضمن
حقائق ومشاهدات في قلب شبه الجزيرة
العربية لم يسبق لرحالة تدوينها
قبل الآن

وقد نشرت تباعاً بجريدة «السياسة» الغراء

بقلم
محمد شفيق أفندي مصطفى
صحافي

قامت بطبعها ونشرها مكتبة المنار باذن الكاتب

١٣٤٦ هـ ١٩٢٧ م

مطبعة المنار بمصر



marefa.org

موسوعة المعرفة

المعرفة مشروع علمي ثقافي يهدف لجمع المحتوى العربي والإضافة إليه، لإنشاء موسوعة دقيقة، متكاملة، متنوعة، مفتوحة، محايدة ومجانية، يستطيع الجميع المساهمة في تحريرها، بالكتابة أو بالاقتباس من مصادر مرخِصة بالنقل. بدأت المعرفة في 16 فبراير 2007 ويوجد بها الآن 35,501 مقال و 2,409,583 صفحة مخطوط فيها.

خلافاً للغات العالم الكبرى الأخرى، تفتقر الثقافة العربية إلى المحتوى الإلكتروني، ويفاقم من ذلك الوضع قصر عمر المواقع الإلكترونية العربية، مما يجعل محتواها الإلكتروني مملوكاً لكيان اعتباري قد زال من الوجود، ولا يستطيع حتى كاتب المحتوى نشره في مكان آخر.

لذا فندعو المهتمين إلى المساهمة في جمع تراثنا في موسوعة المعرفة الحرة والحصول على تصاريح النقل من مختلف المصادر وتوعية أصحاب تلك المصادر ببدائل علامة حفظ الملكية التي تتيح نشر المعرفة. **ادع أصدقاءك للكتابة في أي موضوع معرفي يهمهم.**

مشروع معرفة المخطوطات

تشهد الثقافة العربية تراجعاً على كافة الأصعدة. ونتيجة لذلك تخلى العديد من الشعوب عن استخدام الأبجدية العربية، مما أدى إلى سقوط مراكز إشعاع الثقافة العربية في تلك الشعوب في غياهب النسيان. فنرى حواضر حيدر أباد وتنبكتو وزنجبار وسمرقند ملآى بمئات الآلاف من المخطوطات العربية في حالة يرثى لها من الإهمال. ولقد شكلت التقنية الحديثة من الماسحات الضوئية والإنترنت بارقة أمل. إذ أصبح بإمكان المتطوعين، حيثما كانوا، المشاركة في تحويل تلك المخطوطات الممسوحة إلى نصوص رقمية يعم نفعها الجميع.

وتفخر موسوعة "المعرفة" بحصولها على 25,000 مخطوط تحتوي على 2,409,583 صفحة من المخطوطات من حكومة الهند، وهي تمثل 5% من المخطوطات باللغة العربية التي يعملون على مسحها ضوئياً. قائمة بروكلمان لأهم مصادر الكتب والمخطوطات العربية تضم 16 مكتبة بالهند بين أهم 168 موقع بالعالم. أمدتنا الهند كذلك بملايين الصفحات بالفارسية والتركية (بحروف عربية). وبعد أن كانت الهند أكبر مشتر وقارئ للأدب العربي أصبحت اليوم لا تجد بين أبنائها من هو قادر حتى على قراءة عناوين تلك المخطوطات. الفرصة سانحة لإثراء تراثنا ودعم أواصر التعاون الإنساني مع حضارة الهند الصديقة. المشروع ذاته يجري تكراره مع تجمعات Corpora المخطوطات العربية الكبرى في الصين وتنبكتو (مالي).

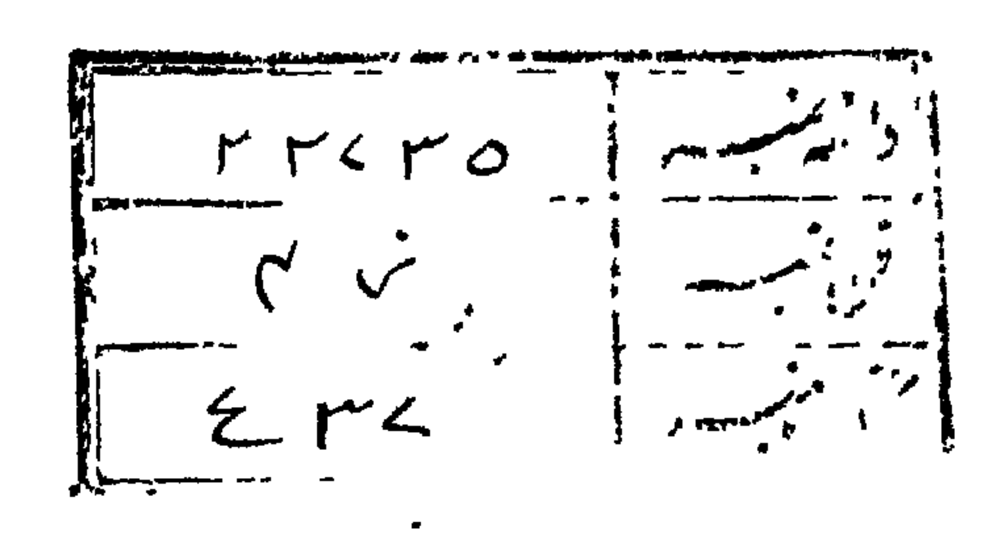
هذه قائمة جزئية للمخطوطات التي لدينا. أخبرنا (بالضغط هنا) أي منها تريدنا أن نعجل بالنشر.

خطوات المشروع:

1. الحصول على صور المسح الضوئي للمخطوطات.
2. نشر المخطوط إلكترونياً مقروناً بمقالات من موسوعة المعرفة متعلقة بالمخطوط والكاتب. ويمكن للجميع تحميل المخطوط. قائمة المخطوطات الجاهزة للتحميل.
3. تدوين المخطوطات, أي تحويل الصورة الممسوحة ضوئياً إلى نص حرفي يمكن التعامل التحريري معه، وذلك للمخطوطات التي لا يوجد لها نصوص. وهذا عن طريق مشروع شقيق باسم معرفة المخطوطات ليضم برنامج تدوين المخطوطات عن بعد Distributed Proofreading. وتلك الخطوة تتطلب جهداً فائقاً ندعو القراء للمشاركة فيه (بالتسجيل هنـا).
4. تقديم نص المخطوط إلى مشروع گوتنبرگ Gutenberg Project لنشر كتب التراث العالمي. وقد انضمت موسوعة المعرفة **لمشروع گوتنبرگ** وهي بذلك المشارك العربي الوحيد في هذا المشروع العالمي.

مع تحيات مدير المشروع

د. نايل الشافعي


٣٣٧٣٥
٤٣٧

في قلب نجد والحجاز

سلسلة مقالات سياسية اجتماعية دينية تتضمن

حقائق ومشاهدات في قلب شبه الجزيرة

العربية منذ أن حالة بدويتها

وحتى الآن

وقد نشرت تباعا بجريدة «السياسة» الغراء

بقلم

محمد شفيق أفندي مصطفى

الصحافي



صوره صاحب الرحله

محمد شفيق افندي مصطفى

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وعليه نتكل وبه نستعين وهو خير معين وبعد :

فلست أنكر انني كنت الى ماقبل زيارة حضرة صاحب السمو الملكي الامير سعود ولي عهد نجد والحجاز لمصر في صيف العام الماضي أجهل كل شيء عن أحوال البلاد العربية التي ندين وإياها بدين الاسلام الحنيف اللهم إلا القدر الذي يعرفه سواد المتعلمين من أبناء مصر وغير أبنائها من الناحيتين التاريخية والجغرافية ، وحسبي أنه لم يكتب واحد من رحالة العرب والافرنج في الطور الحاضر شيئاً يعتد به عنها بعد ذلك التطور السياسي الذي غير من كل شيء على وجه الارض بعد الحرب العالمية الكبرى وبخاصة عقب ادماج القطرين العربيين — نجد والحجاز — في حكم واحد

وتحت سلطان ملك واحد هو حضرة صاحب الجلالة الامام عبد العزيز آل سعود ، واذا قلت هذا في شأن نجد والحجاز وحدهما دون الجزء المتمم لشبه الجزيرة العربية وأعنى به اليمن فانما قد قيض لاهل الاطلاع وعشاق التعرف باحوال الامم من قام بارتياد هذا القطر من أبناء مصر في السنوات الاخيرة ونشر ما كان مجهولا عنه

فقد قام حضرة صاحب السعادة العالم المحقق أحمد زكي باشا برحلة في العام الماضى فقص علينا ما شهده من أحوال اليمن على صفحات الاهرام الغراء مما لم يتعرض له أحد قبله من حيث الافاضة في سائر نواحي تلك البلاد الاجتماعية والسياسية ، ولعل النهضة العربية التي تملت كل شبه جزيرة العرب واشتراك مصر بل قيامها بقسط غير قليل بجمع كلمة المسلمين سواء أكان باهتمامها الدائم بشئون الاراضي المقدسة والخلافة الاسلامية أم بنشر معالم الثقافة العربية واعلاء شأنها هو الذى حركهم المفكرين والباحثين لاستجلاء حقائق الحال فى تلك البلاد والعمل على تقريب

قلوب الشعوب الاسلامية نحو جاراتها وتوطيد علائق الود والصفاء بينها ، وان أنس لا أنسى ما أبداه سمو الامير سعود أثناء زيارته مصر من هذه الرغبة السامية ودعوته المفكرين لزيارة بلاده واستطلاع شئونها ونشر الحقائق المجردة عنها للناطقين بالضاد ممن لا يزالون يجهلون عنها كل شيء

من أجل ذلك ، ولاني منذ نعومة أظفاري أشعر بميل خاص الى احتذاء أثر المستطلعين لا حوال الأمم والبلدان وكنت ولا أزال ممن يؤمنون بالتطور في كل شيء حتى أني كنت أرقب عن كثب خلال زيارة الامير النجدى وحاشيته الكثيرة العدد مصر ما تحدثه هذه الزيارة لمصر المتمدينة العظيمة التحضر في نفوسهم من الاثر والتطور النسبي في حركاتهم وسكناتهم ومقدار قابليتهم واستعدادهم للأخذ بأسباب الحضارة فكنت ألمس أشياء كثيرة مما كنت أؤمن به من هذه الناحية الحساسة ، سواء أكان في اجتماعاتهم بزائريهم من المصريين والاجانب ، أو معاملاتهم الخاصة ، وفي خلال مشاهداتهم لعظمة الحضارة المصرية وأسباب العمران

الاجتماعي، وما اقتناه سمو أميرهم من نفائس المصنوعات وبدائع الاشياء وتقديره لكل ما كان يقع تحت ناظريه مما كان يعد في نظره جديداً غريباً ، فاذا اضفت الى ماتقدم ما كان ينقله الى سمعي الرواة عن فعال جلالة الملك عبد العزيز سواء في تدبير شئون بلاده من الوجهتين الاجتماعية والسياسية والاحاديث التي كانت تنشرها الصحف لجلالته مما يدل على سعة اطلاعه وحدة ذهنه وبعد نظره في جلائل الشئون واتفاق قلوب رعاياه على حبه واجلاله مع بقاء أكثرهم على بداوتهم وشدة تمسكهم بالعمليات دون النظريات

كان كل ماتقدم من الاسباب المباشرة التي دفعتني للقيام بهذه الرحلة الشاقة الطويلة وحسبي أنني قصدتها لوجه العلم والاطلاع فقد سلكت طريقاً لم يطرقها سواي حتى الآن من الاجانب عن تلك البلاد فتم لي ما أردته من حيث الاستطلاع الصحيح واصابة الهدف المقصود . واني لمدين بشيء كثير من الفضل في نجاح هذه الرحلة الى تلك الخلال العربية الكريمة التي أبداها لي زعماء قبائل نجد من طيبة خاطر والى استتباب الأمن في

تلك الربوع ، وأخيراً بل وأولا وآخراً الى رعاية حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز التي شملتني قبل أن يعلم بأمر رحلتي ، حتى بلغت « الرياض » أثر عودة جلالته اليها من الحجاز

هذا واذا كان حقاً علي بعد ذلك أن أخص أحداً في مصر بالشكر والمنة فاني أخص جريدة السياسة الغراء التي تفضلت بنشر سلسلة مقالاتي عن هذه الرحلة ومكتبة المنار التي تكرمت بطبعها ونشرها على جمهور القراء وأسأل الله أن يوفقنا جميعا لتأييد الحق على الدوام

محمد شفيق

تمهيد

دفعني الميل لاستطلاع أحوال شبه جزيرة العرب بعد ذلك التطور الذي شمل هذه البلاد من أدنى أطرافها الى أقصاها الى القيام برحلة طويلة شاقة بدأتها بالسفر من القاهرة الى فلسطين ومنها الى نجد فالأراضي الحجازية مخترقا قلب الصحراء على ظهور الابل . ولا بد لي قبل أن أصل الى وصف أول بلدة وصلت اليها في أرض نجد وأظن أنها « قريات الملح » يجمل بي أن أصف للقراء كيف وصلت وكيف شددت الرحال وهو وصف يثير في النفس ذكريات تاريخية من سير أهل يعرب وملوك البوادي

لم يكن لي عهد بركوب متون الصحراء ولا أعرف شيئا عن وسائل الانتقال والمعيشة في تلك القفار . وقد بدأت الرحلة في الصحراء بأن استأجرت سيارة قامت بي من عمان عاصمة شرق الأردن قطعت في قلب الصحراء زهاء أربعمائة كيلومتر قضت في قطعها يوما كاملا لم أشهد في الطريق أثناءه سوى أرض قاحلة لا زرع فيها ولا ضرع اللهم إلا قوافل من الابل تسير من هنا وهناك ، وقد قص علي سائق السيارة أن هذه الطريق كانت قبل الآن من أخطر الطرق على السابلة ولكن الخفارة الجوية المستمرة قطعت دابر اللصوص وقطاع الطريق اللهم إلا ماتأتيه بعض القبائل كقبيلة الحويطات من الغزوات وأعمال السلب والنهب .

في قريات الملح

وما كدت أصل الى «قريات الملح» وهي أول بلد يدخل في منطقة نفوذ ابن السعود وأبدي رغبتي لبعض زعماء القبائل لزيارة عاصمة نجد حتى أسرع الى اعداد قافلة مؤلفة من خمسة جمال امتطيت أحدها وكان ركاب الأربعة الأخرى بمثابة خدم خاص، وتصادف أن كانت هناك قافلة كبرى قوامها خمسون جملا ركابها يحملون شتى أنواع السلع والبضائع آتون بها من أسواق الشام يريدون تصريفها في قلب نجد ، وعلمت ان هذه الرحلة تستغرق من «قريات الملح» الى «الجوف» تسعة أيام ومن «الجوف» الى «حائل» عشرة أيام ومن هذه الى «بريده» ثمانية ايام ومن هذه الأخيرة الى «الرياض» عاصمة نجد ثمانية أيام أخرى فتكون مجموع أيام هذه الرحلة في أرض نجد فقط خمسة وثلاثين يوما ، وهي مدة اذا أضيف اليها مايقضيه المسافر للراحة في الطريق بما لا يقل عن خمسة وعشرين يوما فتكون جملتها شهرين كاملين يضاف اليها مدة سبعة عشر يوما من «الرياض» الى «مكة المكرمة» عدا ماقضيناه هناك لزيارة الحرم الشريف وغيره فيمكن للقاريء قبل المسافر أن يتصور مشقتها على نفسه لاسيما اذا كان حضريا لم يسبق له في حياته أن أقدم على مثل تلك الرحلة الشاقة وكنت قد استعددت لها فابتعت ثيابا بدوية وساعد طول زمن هذا السفر «لحيتي» فطالت فكان طولها أمراً محتوما على كل مسلم يدخل

أرض نجد ، على أن رأسي لم تعدم موسى من هاتيك المواسي النجدية التي كانت عجائزنا في سالف الزمان يحلقن بها « الملوخية » .فكنت أحتمل لحيتي المرسلة وثقلها وغضاضة تلك الموسى ،مغتبطا رجاء وصولي الى قلب الصحراء ، ولولا بقية صبر في نفسي ما استطعت أن احتمل انعدام وسائل النظافة ووقاية الجسم من أذى الحشرات اللاذعة ، فالصابون لايجده الانسان في تلك البلاد إلا بصعوبة زائدة وبسعر مرتفع جداً ، وقلما يخلع أحدهم ثيابه إلا وهي أطمار بالية وأسمال لم تمسها الماء ، وأكثر سكان البادية لا يغسلون أيديهم حتى بعد تناول طعامهم «فصابون العرب لحاهم» كما يقولون هناك

وقريات «الملح» التي بدأنا السير منها على ظهور الابل قرية صغيرة تقع على الحدود الفاصلة بين نجد وامارة شرق الاردن وعلى مسيرة يوم ونصف يوم من حدود سوريا من ناحية جبل الدروز ، يحكمها أمير نجدي طبقا لأحكام الشرع الاسلامي وعدد سكانها لا يزيدون عن ستمائة نسمة ويعيشون من زراعة القمح وتمر النخل وتربية الابل والماشية واستخراج الملح الذي يجففونه في أحواض ويبيعونه للرحالة في قلب البادية ، والضرائب هناك يسمونها الزكاة فهي تحصل تارة نقداً بحساب سبعة مجيديات على كل ستة إبل وعن كل عشر ناقات مائة واحد عشر قرشا مصريا ، ورأسان من الغنم من كل مائة رأس، والسرقة والفاحشة معدومتان قطعا في تلك البلاد ، ويلقبون الحاكم بالامير . وقد استقبلني أمير قريات الملح على

« مصطبة » كان يجلس عليها بجانبه سيفه وحوله عدد من أخصائه وبعد أن قدمت لنا القهوة النجدية طلب إليّ أن أظل في ضيافته أياما، ولكني اعتذرت لرغبتي بمواصلة السفر، وبعد أن قضيت يوما دعاني لزيارة قبيلة « بني صخر » في معيته وهي قبيلة تضرب في خيام من الشعر على مسافة خمسة عشر كيلومترا من قريات الملح معروفة بشدة البأس وبكثرة الغزوات، وسنأتي على ما يستحق البيان عن هذه القبيلة فيما يلي

وقبل أن نبرح قريات الملح شاهدنا آثار قصر يسمونه « قصر الصعيدي » لا نسبة الى صعيد مصر ولكن لانه شيد على هضبة رملية ذات صخور سوداء كبيرة يحيط به سور منها فاذا بلغ رأس هذه الهضبة انكشف أمامه باب من الخشب يؤدي الى داخله فيرى آثار مقصورات متعددة، وقد اختلف الرواة في تاريخ تشييد هذا القصر فمن قائل ان قبيلة بني صخر التي يعدونها مصرية الأصل وبني عمومتهم من الدروز قام منها أخوان وسكنا هذه الجهات فبنيا هذا القصر ولكنهما اختلفا بعد ذلك فنزح أحدهما الى جبل الدروز فأصبح منهم درزيا وبقي الآخر في هذا القصر الى أن مات فاستولى عليه أمراء هذه البلاد وسكنوه مدة طويلة الى أن عفت آثاره فتهدمت أركانه وأصبحت أطلالا دارسة ولم يبق منها إلا الاسم

و « الجوف » على مسيرة تسعة أيام على ظهور الابل، ومما يستحق الذكر ان هذه الطريق على طولها لم يصادفنا فيها سوى ثلاث

آبار أخذنا منها حاجتنا من الماء . وكان عجبي عظيما لتلك الابل التي لم تطفيء ظمأها خلال هذه التسعة الأيام إلا مرة واحده . على ان رجال القافلة أبلغوني انها تستطيع أن تظل بلا ماء في فصل الشتاء أكثر من خمسة عشر يوما . ومن ألطف مالاحظته في رفاقي أنهم أثناء أداء الصلاة كانوا يراعون واجب المجاملة باعتباري مصريا فيبتهلون الى الله بالدعاء لمصر وأهلها وجلالة مليكها المعظم، وكانت هذه المجاملة في ذاتها تسري عني وعثاء السفر وتقرب القوم الى قلبي كثيراً وتشعرني بعظمة الرابطة الاسلامية التي يدين بها شعوب الاسلام

ومع ان أولئك البدو لا يزالون على سذاجتهم فهم يدلون بأقوالهم وأفعالهم على فطنة وانتباه الى مايصدر منهم، فلا يتخذون من الشؤون السياسية والمباحث الخاصة برجال دولتهم مثاراً للبحث أو التسلية كما يفعل غيرهم من أبناء الأمم الشرقية الأخرى فهم يقتصرون على ترديد هذه العبارة « الملك لله ثم لعبد العزيز بن السعود » وتراهم يقصرون أحاديثهم في طوال أسفارهم على رواية قصص مشاهير العرب من بطولة وكرم وتمسك بأصول الدين والفضائل، ومع ان الشعر نبت في أرض العرب فان أهل بادية نجد الوسطى تعده حراما لانه تغلب فيه الحماسة دون ذكر الله، أو الغزل وهذا مايعده العرب نقيصة خلقية تعافها نفوسهم . وأبلغ مثال على تطور أخلاق العرب اننا مررنا ببقعة تدعى « دخلونه » تقع على رأس تل رملي في وسط الصحراء ذات تربة طينية لزجة لا يستطيع الانسان السير عليها ولا

يمكن أن تقربها أقدام الابل ، ويقول العرب انها كانت مكان « مدينة لوط » التي غضب الله على أهلها كما جاء ذلك في الفرقان ، ويقولون ان بطن هذه البقعة تحوي كنوزاً من الذهب وغيره من النفائس ومع ذلك فلم تحدث نفس أفقر اعرابي في الوصول اليها أو التطلع الى مايحويه جوفهـا من كنوز باعتبار ان أرضها نجسة وقد غضب الله عليها وعلى كل من كان يعيش فوق أديمها في غابر الزمان! وهي نفسية تدل على تدين شديد واستمساك متين بأوامر الله ونواهيه

في الجوف

وفي اليوم الثامن وصلنا الى مكان يسمونه « الفرجية » يحيط به عدة جبال كساها البرد وأحاطت بها الحشائش الخضراء فبانت للناظرين كأبدع ماتراه العيون في سويسرا ذات المناظر الطبيعية البهيجة أضف اليها جمال الصحراء وسكونها الرهيب وجلالها الخاطف للألباب . وهكذا مر بنا ضحى اليوم التاسع مرّ النسيم العليل فأنستنا هاتيك المناظر ماسبقتها خلال الثمانية الايام من طرق موحشة وصحراء جرداء . ووصلنا الى بلدة «الجوف» فما علم رجال أميرها عبد الله محمد بن عقيل بقدومنا حتى خفوا الى لقائنا ، وكان الامير ذاته على أبواب المدينة في انتظارنا ليحيينا ويدعونا لضيافته باسم جلالة الملك ابن السعود ، وهكذا لبينا الدعوة شاكرين .

و «الجوف» بلدة صغيرة تقع في واد منخفض تحوطها الجبال

من جميع جهاتها ولعل ذلك أصل تسميتها بالجوف أي انها واقعة في جوف الجبال والصحراء . ويكثر فيها النخيل التي يؤتي ثمراً ممتازاً على سواه بلذة طعمه وسرعة هضمه ، ويزرع أهلها كذلك القمح والشعير وبعض الخضر وأشجار الفاكهة كالليمون والبطيخ والخوخ والعنب والمشمش ويشتغلون بالتجارة وبعض الصناعات كدبغ الجلد ونسيج الصوف الذي تصنع منه العباءات المعروفة باسم «عبي الجوف» وقد جاء ببعضها الى هنـا سمو الامير سعود أثناء زيارته مصر . وتروج هناك تجارة الابل والماشيه ، ويكثر في صحاريها طير النعام الذي يتخذه الخاصة والامراء طعاما لهم . وكذلك تكثر الغزلان والحمار الوحشي ذو الخطوط الذي نشاهده في مصر بحديقة الحيوانات بالجيزة

السرقة والزنا معدومان

وقد قدم لي أمير « الجوف » من لحم الغزال والنعام طعـاما على مائدته فلم أزدرده بشهية لعدم اعتيادي تناوله ولكنهم يعدونه أفخر اللحوم وأجلها شأنا في إكرام خاصة ضيوفهم . ولا يفوتني أن أذكر ان الامير عبد الله بن عقيل لم يكن بدويا قحا كأكثر أمراء الجزيرة ولكنه على جانب من العـلم والاطلاع غير قليل ، وبلاده تحكم طبقاً لاحكام الشرع . على ان ممـا يوجب العجب ان جريمتي السرقة والزنا تكاد أن تكونا معدومتين قطعيا في تلك البـلاد ، وأذكر أن أحـدهم حضر الى مجلس الامارة أمامنا وأبلغ أن كسيا

من البن ضاع منه على مسيرة أربعة أيام من «الجوف» وهو قادم من جهة «حائل» ومضى الى حال سبيله، وحدث بعد يومين أن حضر رجل كان قد سلك هذه الطريق فسأله الامير عما اذا كان قد وجد شيئا في الطريق أثناء سفره ؟ فقال انه وجد كيسا من البن ، فسأله الامير . ومن أين عرفت ان به بنا ؟ فأجابه بأنه جسه من الظاهر بعصاه ثم تركه مكانه، فما كان من الامير إلا أن أمر بضربه خمسين عصا ، وهنا رأيت أن أسأل الامير عن سبب إنزال هـذا العقاب بالرجل وهو لم يسرق . فأجابني قائلا : كان يجب عليه أن يرى الكيس ولا يلمسه حتى يأتيه صاحبـه فيأخذه . وقص عليّ الامير على سبيل التدليل على أمانة أهل نجد وبعدهم عن اقتراف السرقة مهما بلغ شأنها أن يرى أحدهم الذهب في الطريق فلا تمسه يده مهما كان فقيراً معدما .

وقصر الامارة هناك يتصل ببناء قديم العهد بناه الاسرائيليون في أيام عزهم وصولتهم ويطلق عليه اسم «قصر مارد» مشيد بالاحجار وله برج كبير اشبه بقلعة حربية ويقولون انه بني قبـل ميلاد النبي عليه الصلاة والسلام بأربعمائة عام .

ويمتاز أهل « الجوف » على شدة فقرهم بحسن وفادة الغريب وإكرام الضيف ، وسوادهم من أصحاء الابدان لا يشكون مرضاً ولا يذكرون علة على شفاههم ، والسر في ذلك هو جودة مناخ الجوف وطيب مائها وخصوبة أرضها . وعلى ذكر الزراعة فهم يستخرجون

الماء للزراعة بواسطة دلاء من الجلد مشدودة بحبال قد ربطت أطرافها بأعناق الابل، فاذا ملئت الدلاء بالماء وشعرت الابل بامتلائها نزلت الى منحدر بجانب البئر وعندئذ تكون الدلاء قد ارتفعت الى علو وأفرغت مابها من الماء في حوض ذو فتحات متصلة بالارض المراد ريها، ويسمون طريقة الري هذه «التني»

فشل محاولات استعمارية

وقبل أن نغادر «الجوف» قص عليّ الأمير إن جماعة من السواح الامريكان والانجليز طالما حاولوا ارتياد مابعد الجوف بحجة الاستطلاعات العلمية والجغرافية فلم يأذن لهم الملك ابن السعود مخافة أن يكون لهم شأن آخر كهاتيك الشؤون الاستعمارية التي بدأها أمثال هؤلاء في غير بلاد العرب بمثل تلك الاسباب ثم كانت النتيجة بلاء على أهلها . مثال ذلك أن رجلا انجليزيا يدعى مستر «ابشر» ذهب الى «الجوف» على رأس قافلة من السيارات كلفته أموالا طائلة بحجة اقامة مصنع للفخار من طينة معروفة بصلاحيتها لهـذا النوع فلم يأذن له الملك . وهكذا أصبح معروفا في بلاد العرب أن نجـداً لن تصلح أرضها لوطء أقدام السياح والعلمـاء والخبراء والمهندسين الاوروبيين ، حتى أن أحدهم أكد أن في وسعه أن يفتح آباراً للبترول «بالرياض» عاصمة نجد فرفض طلبه مع شـدة حاجة أهلها الى البترول وغلاء ثمنـه ، في حين ان ابن السعود ليتمنى أن تصل

الى بلاده بعثات علمية من كل مطلب ومشرب على أن تكون شرقية إسلامية بريئة لا مطمع لها ولا مأرب. فهو يحب العلم ويقدره ويرجو لبلاده العمران والرفاه ولكنه يرفض كل ذلك بشدة لو جاءه من طريق مريب .

و « حائل » تبعد عن الجوف نحو عشرة أيام على ظهور الابل ، وقد بدأنا السير في هذه الطريق فاذا بها طريق موحشة بالمرة ، فكنا نسير صاعدين فوق تلال ضيقة رملية تشرف على حزون بعيدة الغور ، ثم نهبط منها منحدرين الى مغاور ومجاهل يشرد عندها اللب وينخلع لها القلب . ذلك لانه اذا اختل توازن الراكب على الابل قليلا أو عثرت أقدام الابل كان الهلاك محققاً إذ يسقط في هوة لانجاة منها ، وكانت عيون الماء خلال الستة الايام الاولى معدومة ولولا مانحمله من الماء على ظهور الابل وما كانت تملأ به أجوافها منه لهلكنا نحن وهي ظمأ ، على أننا مع ذلك لم نستطع قط أن نسرف في الماء فلم نغتسل بقليل ولا بكثير منه ، وما كاد فجر اليوم السابع ينبلج حتى وصلنا بلدة تدعى « جبه » ذات مبان من طين أبيض يلمت الانظار ، فأخذنا حاجتنا منها بعد أن استرحنا قليلا ، وما كان أكبر دهشتي حين أقبل علينا نفر من أهل تلك البلدة يحتفون بنا ويسألون عني بالاسم ، وقد علمت أن بعض رجال القافلة التي سبقتنا أنبأهم بوصول مصري متحضر ينوي زيارة أمير الرياض فكأنهم بذلك عبروا عن سليقة الكرم العربي جملة ونابوا عن أميرهم خاصة.

وفي اليوم التاسع وصلنا إلى قرية تدعى « قنا » وينطقون الحرف الاول منها بالجيم كما ينطقها أهل مديرية قنا المصرية ، وهذه القرية صغيرة جداً لا أثر فيها للأخذ والعطاء حتى أننا أردنا شراء شاة لطعامنا فلم نجدها، على أن ذلك لم يسؤنا كثيراً فقد وصلنا إلى حائل بعد ظهر اليوم التالي مارين في طريقنا بثلاث قرى أكبرها « أم جلبان » ولا تزيد مبانيها على أربعة بيوت يحيط بكل بيت بعض النخيل

ولما صرنا على قيد أميال من حائل كان نائب الامير عبدالعزيز ابن مساعد بن جلوي، وهو ابن عم جلالة الملك ابن السعود في استقبالنا وقد رحب بنا باسم أميره وسار بنا حتى دخلنا « حائل »

في حائل

« حائل » هذه اسم على مسمى فهي حائل بين بلاد نجد وبين ملحقاتها الشمالية وتعد بالنسبة إلى غيرها من البلاد التي مررنا بها مدينة عامرة ذات شوارع فسيحة منظمة وفيها سوق كبيرة تروج فيها تجارة الماشية والابل ، وهي أقرب بلدان نجد إلى الحجاز فهي تبعد عن المدينة المنورة بنحو ثمانية أيام فقط ، وإلى الشام بنحو خمسة عشر يوما ، وإلى العراق بما يقرب من ذلك على ظهور الابل وهي محطة رحال التجار القادمين من هاتيك الديار والمسافرين اليها وتروج فيها تجارة الارز الذي يجلب من الهند اليها وهو بمثابة مادة أولية للغذاء نظير الحنطة في مصر ، وتزرع في جوارها مساحات

كبيرة من الخضر والفاكهة ومع كثرة وجود النخيل فان ثمره رديء غير مرغوب فيه إلا عند الطبقة الفقيرة جداً . وقد شاهدنا بعض النسوة يبعن الخبز والفاكهة والخضر والدجاج والبيض في سوقها وهن محجبات بجلابيب سوداء وفوقها جلباب بشكل العباءة وهن في غاية الحشمة والوقار لانسمع لهن صوتاً ولا يتحدثن مع السابلة إلا بالقدر اللازم لبيع مابأيديهن من السلع .

أما القصابون هناك فينحرون الماشية ويقسمونها إلى أربعة أجزاء يسمونها « أوصالا » فيباع الجزء منها بمبلغ يتراوح بين العشرة والثلاثة عشر قرشاً ، أما أثمان الدجاج فرخيصة جداً إذ تباع الدجاجة الكبيرة بثلاثة قروش فقط.

وأهل هذه المدينة يتعاملون بعملة فرنسية يسمونها «الشوشي» ويسميها بعضهم الريال وهي قطعة فضية قيمتها احد عشر قرشاً تقريباً ، أما أجزاؤها فهي « البيشلي » قطعة من عملة تركية وهي المعروفة بالبيشلك بخلاف أهل قريات الملح والجوف فانهم يتعاملون بالمجيدي التركي .

في ضيافة أمير حائل

وفي اليوم التالي لوصولنا دعانا الامير عبد العزيز بن مساعد بقصر الامارة وقد احتفى بنا فيه احتفاء حسناً وأنزلنا بمنزل خاص ورتب لنا خدمة خاصة ، وهذا الامير يخيل للرائي لأول

نظرة أنه على شيء من العجرفة والكبرياء ولكنه في الواقع على جانب كبير من رقة الشمائل ومكارم الخلال ،وهو مطلق الحكم في أقليمه وما يجاوره من ملحقات نجد الشمالية فهو الحاكم المسموع الكلمة النافذ الارادة بعد الملك ابن السعود . ومما يستحق الذكر أنه معروف بالشدة والبطش اذا خالف أحد أحكام الشرع أو أخل بالأمن العام . ويستخدم هذا الامير في روحاته وغدواته وأسفاره سيارتين يؤتى لهما بما يلزمهما من وقود وأدوات من القدس وشرق الاردن ويقوم بقيادتهما سائق سوري يساعده آخر نجدي .

وقد دعانا أحد رجال القصر لمشاهدة سجن المدينة وكنت أحسبه عامراً بالمحكوم عليهم ولكني بهت حين وجدته خالياً إلا من حراسه الذين ما كانوا يحرسون غير جدران،وخشبته المستطيلة الافقية التي تتدلى منها سلاسل حديدية تقيد بها أقدام المسجونين — ان وجدوا — وقد عرفت السر في خلو السجن من المسجونين . ذلك لان الاحكام الشرعية وحدها هي خير وازع تقطع خط الرجعة دون الجرائم على أشكالها وضروبها ، وقد علمت أن المسجون رغماً عن قيوده داخل سجنه فانه يعامل معاملة حسنة ويطعم طعاما عاديا ، ويؤذن له بأداء الصلاة في أوقاتها ، والناس على اختلاف مشاربهم يحترمون القانون الشرعي ويعدونه تنزيلا سماويا لاسبيل إلى مخالفته

وحائل ذات مناخ معتدل وفيها عين ماء عذبة شافية من العلل يسمونها « ماء السماح » لاتقل أهمية عن مياه « فيشي » المعدنية الشهيرة

فهي تذيب الاملاح وتشفي أمراض الكلى بسرعة وتنقي الدم وتساعد على الهضم بصورة مدهشة، وأما مياه عيونها الاخرى فلا بأس بها أيضاً يدلك على ذلك اعتدال صحة سكانها وامتلاء أجسامهم، وانقطاع الامراض بينهم، وقد كانت حائل فيما مضى عاصمة لملك ابن الرشيد الذي كان أميراً عليها من لدن آل سعود واستقل بها زمناً ثم أعيدت إلى حظيرة آل سعود مما سنأتي عليه بعد .

وأهل حائل أصلهم من قبيلة « شمر » التي كانت تضرب في البادية، فانقسمت على نفسها ورحل جزء كبير منهم إلى حائل فتحضروا فيها وظل الجانب الآخر على حالته، ويشاهد في حائل « الاخوان » الذين يسمونهم « الحبان » وهم يعرفون بعمائمهم الكبيرة التي يضعونها فوق كوفية حمراء يسمونها « الغطرة » وهي تختلف أوضاعا وحجما فمن كانت عمامته متوسطة الحجم كان عاديا أما من ظهرت عمامته أكبر حجما عرف بأنه شيخ من خاصة الحبان

وللحبان في بلاد نجد المقام الاكبر والمكان الذي يفوق سواهم من عرب البادية، فهم أصحاب الغزوات المشهورة في حائل والاحساء والحجاز، وكانوا إلى ماقبل بضع سنوات لا يعرفون من الدين إلا اسمه ولكنهم الآن باتوا على معرفة كبيرة بأصول الاسلام وقواعده وأوامره ونواهيه، واليهم مرجع الفضل في اخضاع الحجاز إلى ملكهم وطرد الحسين وأولاده من الأراضي المقدسة ونشر تعاليم السنة المحمدية في نجد والحجاز على السواء .

في بريدة

مدينة « بريده » على مسيرة ثمانية أيام في طريق سهلة وكانت أول قرية صادفناها قرية تدعى « العدوة » يحيطبها أراض مزروعة بالغلال وجبال شاهقة الارتفاع ذات منظر ساحر على يمينها أرض رملية يضرب لونهـا الى وهج الذهب تؤلف منظراً يخطف الالباب وحدث أثناء سفرنا أن افتقد أحد رجال قافلة تقدمتنا في السفر ناقة له أثناء الليل فأرسلوا بعض رجالهم للبحث عنها ، فعادوا وأخبروا بأنهم لم يعثروا عليها وفي الاثناء حضر بدوي وأبلغهم أنه شاهد ناقة في طريقه وأعطى أوصافها وكانت هي الناقةالضالة.وذكر أنه كان في وسعه أن يقودها معه اليهم لولا خوفه من أن يتهم بسرقتها فشكره صاحب الناقة . وهكذا جد رجال القافلة حتى عثروا عليها قبل أن يصل أمرها إلى ولاة الامور . فاستخلصت من ذلك ماأيد لي أمانة القوم وانعدام حوادث السرقة انعداما باتا في قلب نجد .

ووصلنا إلى بريدة بعد مسيرة عدة أيام. صادفنا نحوأربعة قرى هي «الكهفة والجوارة ووثال والشقة » وينزل في ثانيتها بعض الاخوان المتحضرين منـذ زمن بعيد ، وبجوار البلدة الرابعة جبل يستخرج منه الملح دون أن يدفع عنه الاهالي ضريبةأو ثمنا . وكان أمير بريدة قد بلغه خبر قدومنا وهو يدعى مبارك بن مبيريك فخف لاستقبالنا

باسم جلالة الملك ابن السعود استقبالا هو غاية في الود ونهاية في الكرم، وأنزلنا في داره ضيوفا كراما .

و « بريدة » هذه تقع في سهل رملي ذات مبان متعددة كحائل تحيط بهـا المزارع وأشجار النخيل ويمتاز ثمرها بقصره وسمنته والاهالي هنالك يجففونه ويسمونه « البيبس » وأحسنه ماتنبته نخيل «عنيزة» ومع أنه شديد الحلاوة الذيذ الطعم الا أنه غير سهل الهضم

باريس نجد

ويعدون بريدة عاصمة لسائر القرى التي تحيط بهـا وهي في جملتها تدعى « القصيم » وأم مدنهـا « عنيزة » وهي التي أسماها الشاعر الاشهر أمين الريحاني عند زيارته لها « باريس نجد » .ذلك لان منازلها مؤلفة من ثلاث طبقات على نسق مبان المدن المتحضرة وأهل القصيم ولا سيما سكان بريدة وعنيزة يعدون أغنى أهل نجد جميعا وأكثرهم تحضراً وأنشطهم حركة وأعرفهم بأساليب التجارة ولقد رأيت كثيرين منهم في الشام ومصر يتبادلون المتاجر فيجلبون الى مصر مثلا الخيل والابل والماشية والجلود والسمن ، ويبتاعون الاقمشة وشتى أنواع المصنوعات والسلع ، بل منهم من له شأن تجاري يغبط عليه في أسواق الهند ومدن الحجاز ، وكان ذلك سببا في تطور أخلاقهم وعاداتهم وميلهم الى الاخذ بأساليب المدنية وسهولة الطباع وعدم التعصب لمذهب دون آخر ، زد على ذلك أن في وسع الغريب

عن ديارهم أن يفهم لهجة كلامهم بسرعة فاذا أضاف بعضهم غريبا متحضرا أدهشه مايراه على موائدهم من أصـناف الاطعمة ولوازم المائدة مما يجعله لا يصدق أنه في قلب نجد؟ كما أني لاحظت بعضهم يدخن سرا . وعلى ذكر الدخان الذي يسمونه النجديون « التيتن » أقول أنه لايوجد له أثر في نجد فاذا عثر عليه عوقب صاحبه كما يعاقب محرز الحشيش والمخدرات السامة في مصر وعلى ذكر سكان بريدة فيما أسلفنا نذكر أن جلالة ابن السعود يختار عادة من مفكري هاورجالها المتعلمين من يمثلون بلاده في الخارج أمثال حضرة الشيخ فوزان السابق معتمده في مصر والشيخ يس الرواف معتمده في سوريا .

الى الرياض

مضينا في «بريدة» ثلاثة أيام ثم استأنفنا السفر الى «الرياض» عاصمة نجد . وللوصول اليها طريقان : طريق « الوادي » وطريق « المستوي » وثانيهما أقصر من الاول . وحـدث في الاثناء أن أذيع خـبر عودة جلالة الملك عبـد العزيز من المدينة المنورة الى عاصمة نجد للمرة الاولى بعد فتحه الحجاز ، فاخترنا طريق المستوي كي نعجل بالوصول الى الرياض لنشهد حفلات استقباله وقد قطعنا اليوم الاول في طريق رملي ذو هضاب رملية ووصلنا الى قرية تدعى « أبو شيجر » بعد مسير أربعة أيام ومن هناك علمنا أن جلالة الملك وصل في موكب أفخم مؤلف من ست وعشرين سيارة في ذلك اليوم

ولم أر مايستحق الذكر خلال هذا الطريق سوى أن أهل القرى هناك يأكلون الجراد وهم ينتظرون مواسمه كما ينتظر سكان مصر موسم السمان . . وأغرب من ذلك أنهم يتفاءلون بالخير إذا أقبل موسمه بقدر ما يتشاءم منه أهل مصر ويتسلح الفلاحون المصريون لمطاردته . ومما يتحدثون عن فوائده من نجد انه مغذ كالشهد شاف للعلل كالترياق حتى بلغت بهم شدة الشغف لأكله أن يتخذوا منه قديدا ولا أدري أهم يقددونه بطريقة التعقيم أم بطريقة أخرى لا تزال غائبة عن معامل برشلونة . . وقد قص علي أحد رجال القافلة أن بعض كبار التجار النجديين في مصر لايزالون على عهدهم بقديد الجراد ، يرسل اليهم في أكياس هي عندهم أعز من أكياس الحلوى التي تهدى في الافراح . .

ومررنا على بلدة «شجرة» وهي كائنة في وسط اقليم يسمى «الرس» وهي ذات تجارة متوسطة ويعدونها عاصمة ذلك الاقليم ومررنا كذلك على بلدة تدعى «البره» الى أن وصلنا الى مدينة «الدرعية» بعد مرورنا على اطلال قرية يسمونها «العيينة» التي نشأ منها «مسيلمة الكذاب» الذي ادعى النبوة في عهد النبي عليه الصلاة والسلام .

و «الدرعية» مدينة أثرية كانت عاصمة لنجد وفيها نشأت أسرة آل سعود ومنها ظهرت الدعوة الوهابية وحولها دارت الحرب بين جنود المغفور له ابراهيم باشا والي مصر وبين الوهابيين ولا تزال آثار مدافعه بادية للانظار في خرائب مدينة الدرعية القديمة .

عاصمة نجد تستقبل ملكها

بلغنا « الرياض » في صباح اليوم الثامن وكانت المدينة قد لبست زخرفها وانتشرت معالم الابتهاج بوصول مليكها اليها بعد فتحه الحجاز وقد امتلأت بالوفود من أقصى أنحاء نجد للترحيب بمقدمه

تعطفات ملكية

وكان جلالة الملك قد علم بقدومنا فأرسل مندوبا عنه لاستقبالنا بباب المدينة وسار بنا الى قصر جلالته وقد دخلنا عليه لاول مرة فاذا به يستقبلنا استقبالا وديا كأننا كنا على صداقة قديمة بيننا وبين جلالته ولما علم غرضنا من رحلتنا سر وأظهر عطفه على رغبتنا في استطلاع أحوال شبه الجزيرة العربية وأمر باعداد منزل خاص لاقامتنا وطلب الينا أن نحظى بمجلسه في أي وقت شئنا ومن ثم أخذنا نتعرف بكبار ذوي الشأن في عاصمة نجد لنستطلع ماجل ودق من شؤون البلاد جملة وتفصيلا . وبدأنا نجمع المعلومات الدقيقة عما كان قبل اعلان الحرب على الهاشميين وفي خلال تلك الحرب وماجرى بعد ذلك من التطورات حتى الآن مما سنأتي عليه

وصف العاصمة النجدية

القصور الملكية

« الرياض » تعد أكبر مدن نجد وأعظمها شأنا باعتبار أنها

عاصمة الديار النجدية ذات مبان متعددة بينهـا عدة عمارات كبيرة، أكثر شبها بمنازل أعيان أقاليم القطر المصري ، أما قصور أمراء الاسرة المالكة فتمتاز عن سائر مباني الرياض باتساعها وبهاء شكلها ويحيط بالمدينة سور فخم له عدة أبواب كثيرة على مثال أبواب المدن الشرقية في سالف الزمان وهي تقفل عند اللزوم . وتحيط بالعاصمة المزارع وأشجار النخيل وهناك مزرعة خاصة بأمراء البيت المالك لم يستوقف نظري فيها سوى بعض شجيرات من الورد وأخرى من القطن ، ولعل في زرع شجيرات القطن معنى خاصا يجول في نفس جلالة ابن السعود هو ذات المعنى الذي جال في نفس المغفور له محمد علي باشا محيي مصر يوم أمر بزرع بعض شجيرات من القطن المرة الاولى في مصر في حديقة قصره ، فلما أعجبه شكلهـا وسره تفتح لويزات القطن وظهور خيوطها البيضاء وما كان منه بعد ذلك حيث أمر بتعميم زراعتـه في سائر بلاد القطر فكان ذلك سببا في رخاء البلاد وسعادة العباد . على أن تحقيق هذه الامنية السعودية قد يتم على مدى الزمان اذا أعدت الاراضي التي تصلح للزراعة ومهدت لها وسائل الري

وفي الرياض عدة مدارس دينية أشبه بكتاتيب المساجد عندنا يدخلها الصبيان فيتعلمون مباديء القراءة والكتابة ويحفظون القرآن عن ظهر قلب ولا يتبحر في العلوم الدينية إلا النادر من الذين يريدون الانقطاع لخدمة العلم والدين فيلقنون تفسير القرآن وأحكام

الشرع ومن هؤلاء يتخرج أئمة المساجد ووعاظها . وفي الرياض ستة مساجد خالية من مظاهر الزخرف والفرش بغير قباب وأغلبها بغير سقف وتقام صلاة الجماعة في أيام الجمع والعيدين في مسجد واحد .
ويبلغ اهتمام بعضهم بسماع الخطبة المنبرية أن يبكر في الحضور إلى المسجد ليأخذ له مكانا فيه خشية الزحام فاذا طرأ عليه مايستوجب مبارحته المسجد وضع عصاه أو أي شيء آخر في مكانه ومضى إلى سبيله حتى اذا أذن للصلاة عاد إلى مكانه دون أن يرى من يجرؤ على احتلاله ، ولا تستعمل القناديل في اضاءة المساجد ليلا فيكتفون ببعض الشموع ، ومن أعجب مالاحظته عند صلاة الفجر بعد الانتهاء من الصلاة أن ينادي المؤذن بأسماء الذين اعتادوا الصلاة في مسجده فاذا تخلف أحدهم دون عذر شرعي عوقب للمرة الاولى بمصادرة « كوفيته » فاذا عاد عوقب بأخذ « عباءته » أما اذا عاد للمرة الثالثة فيأمر به مجلس الشرع بالضرب والسجن عدة أيام

وقد جرت العادة بعد صلاة الجمعة أن يجلس الملك ونائبه في ردهة القصر الملكي ويستقبل المصلين فيمر بهم الساقي بالشاي ، ثم بالقهوة النجدية ومن ثم يطوف بالحاضرين رجلان يحملان مبخرة يتضوع منها عبير المسك والعنبر ويعدون هذا بعد صلاة الجماعة مسك الختام فيبتهلون بطول العمر والتأييد للملك .

أما القصر الملكي فهو مشيد على نمط عربي صرف تقوم في وسطه أعمدة من الجبس الابيض الناصع ذات نقوش عربية تستوقف الانظار

بدقتها وجمالها وهو يتألف من طابقين . الطابق الاول وفيه قاعة المائدة الخاصة بضيوف الملك الاخصاء وغرف أخرى خاصة باطعام اللاجئين لساحته الملكية من فقراء البدو والسابلة ، أما الطابق الاعلى ففيه عدة ردهات كبيرة وبهو يسع نحو ثلثمائه شخص ، وقد خصص جناح للديوان الملكي يشمل مكتبة الملك الخاصة وديوان سمو الامير سعود وغرف خاصة لسكني كبارموظفي القصر وطبيب الملك الخاص . ويلاصق بناء القصر بناء كبير خاص بالحرم والوصيفات والجواري والعبيد وعددهم جميعاً لا يقل من أربعمائة شخص بين ذكور وأناث .

جلالة الملك عبد العزيز

وأما جلالة الملك عبد العزيز بن السعود فطويل القامة ممتليء الجسم ، نحاسي اللون ، براق العينين ، سمح المحيا ، يضع على عينيه نظارة وتبدو عليه مخايل الذكاء المفرط وقوة الارادة وشدة العزم مع سماحة الخلق وأناة وتدبر في كل مايخرج من فمه من الكلام وجلالته يناهز الخمسين من عمره وقد أصيب في ابهام يده اليسرى برصاصة أثناء الحرب فتركت أثراً ظاهراً فيه حتى الآن ، ومن عادته اذا سار خفض برأسه نحو الارض ويلبس عباءة نجدية مزخرفة بالذهب كثيراً مايرفع جزءاً منها تحت أبطه ، لا يسرع أثناء سيره ، وهو محبوب من شعبه ، لا يتوجس خيفة شر من أحد ، فلا يهتم كثيراً بملازمة الحرس إياه

أول حديث ملكي معنا

ومما يجدر بي ذكره أنه بعد أن مثلت بين يدي جلالة الملك كان أول ماابتدرني به من الحديث أنه هنأني بسلامة الوصول وطفق يسألني باهتمام عما شاهدته أثناء سفري الطويل الشاق فكان يبتسم ابتسامات الاعجاب كلما أجبته على سؤال بما لايخرج عما أسلفت بيانه في مقالاتي السابقة . ومن ثم بدأ جلالته يحدثني قائلا « ليس عندنا سوى دين واحد ومذهب واحد والجميع يؤدون الصلاة وراء امام واحد وهذا مانشكر الله سبحانه وتعالى عليه . نعم إن المذاهب أربعة ولكننا نعتقد أن مذهب الامام ابن حنبل هو أقرب المذاهب للسنة النبوية السمحة فلا تجد عندنا إلا ما يقوله المسلم لأخيه المسلم السلام عليكم وهم مرتبطون جميعا بكلمة التوحيد وعلى هذا الاساس يقوم ملكنا والحمد لله ، نحن لا نبغي الملك لذاته فالملك لله الواحد القهار، فوالله وبالله لو أعطينا ممالك الارض طراً وأحسسنا أن بعضها شركا لبعدنا عنها بعد السماء عن الارض ، وليس يعنينا أن نقاتل الكفار ولا نبغي إلا أن يهديهم الله سواء السبيل ، فما داموا بعيدين عنا فليس ينالنا منهم شيء ولا نحب أن نذهب إلى ديارهم ولا أن نتشبه بهم حتى ولا نرتدي شيئاً مما يلبسونه ، إن المسلم الحقيقي هو الذي يتبع أصول دينه ويرعى أمر الله فمن شابه الكفار أو تشبه بهم فلا خير له في الدنيا ولا الحياة الآخرة »

تلك هي النفسية الدينية التي يدين بها الملك عبد العزيز الذي يحكم اليوم أرض نجد والحجاز ويقبض على ناصية الامر فيها بيد من حديد ، ولعل للاحكام الشرعية التي هي أساس قيادة الشعبين الأثر الفعال في قطع دابر حوادث السلب والنهب والاعتداء على الارواح والاموال والاعراض كما كان يحدث قبل في بلاد الحجاز وتأمين حجاج بيت الله الحرام من هذه الناحية ، ومع أن البدو أناس لا يخضعون لحكم أو سلطان فمن العجيب أن يسري بينهم حكم الشرع ويخضعون له ذلك الخضوع ، فمن البديهي أن دهاء هذا الملك ومقدرته على استمالة النفوس التي تأصل فيها الشر والفوضى منذ عدة قرون كانت هي العامل الفعال لاستقرار حكم الشرع بين تلك القبائل .

واذا ألقينا النظر على شكل حكومته لانجد فيها هيئة وزارة ، ولا مجلس وكلاء ، ولا مستشارين ، ولا رجال تشريع بالمعنى الذي نفهمه نحن ، فالاموال العامة تجبى من الاهالي بغاية السهولة وتحت تأثير حكم الشرع ويتولاها رجل واحد هو موضع ثقة الملك وحاشيته فأكبر مبلغ وأقل مقدار من المال سواء أكان لمصلحة عامة أو خاصة إنما يصرف بموجب قطعة ورق يكتب عليها الملك أو نائبه أمر الصرف دون الحاجة إلى ادارة خاصة بالحسابات وعدد كبير من الموظفين ويتحتم أن تعرض سائر مكاتبات الدولة في كافة شئونها عليه وكذلك يطلع بذاته على ما يتحرر من المكاتبات ويبصمه بخاتمه الذي لا يفارق أصبعه . هذا فيما يتعلق بحكومة نجد فقط ، أما الحجاز ففيها حكومة

منظمة وادارات متعددة كادارة الامن العام وادارة الشئون الخارجية وغيرها ، على أن المرجع الاعلى لكافة شئون الحجاز أيضا يجب أن تعرض على جلالة الملك عبد العزيز شخصيا

المناداة بالسلطان عبد العزيز ملكا

ولنعد إلى الرياض فقد ذكرنا بأن جلالة الملك كان قد وصل اليها قبل أن نبلغها بأربعة أيام بعد أن غاب عنها زهاء ثلاث سنوات قضاها في الحجاز بعد انتصاره في الحرب المعلومة ، فكان بديهيا أن تنتشر معالم الافراح عند عودته فاتحا ومنصوراً ، وبعد غيبة طويلة لم يسبق لها نظير من قبل ، فقد غصت المدينة بوفود من أطراف البلاد للترحيب بمقدمه وكانت مناظر ساحرة يبديها أولئك الوافدون من مظاهر التأهيل والاغتباط في وسط جذل آل البيت السعودي فكنت ترى العطايا الملكية تفيض على فقراء الوافدين والهدايا تعطى لكرامهم وألسنة الجميع لاهجة بالشكر والحمد .

وقد دعيت لحفلة اعلان المناداة بجلالة عبد العزيز ملكا على نجد بعد أن كان سلطانا وقد فاضت فيها ألسنة الشعراء والخطباء ببيان صفات مليكهم وما أحرزه من فخر الانتصار في فتح الحجاز وقد قال أحدهم «مادامت الحجاز أصبحت من أملاكنا فلا يجوز أن تنفرد بوصف أنها دولة ملكية دون نجد التي لا تقل عنها شأنا »

حفله زواج الاميرة سارة

ودعيت لحضور حفلة زواج الاميرة سارة ابنة جلالة الملك على ابن عمها الامير فيصل بن سعد ، فكانت حفلة غاية في البساطة فقد فرشت ساحة القصر بالابسطة الفخمة ومدت الموائد الشهية وبعد أن تناول المدعوون مالذ لهم وطاب أمر جلالته بنحر خمسمائة شاة وتوزيع لحومها على الفقراء والمعوزين . وبعد انصراف المدعوين جيء بأحد العلماء وتولى اداء المراسم الشرعية، فكانت حفلة عربيه أمثال تلك التي حدثنا عنها السلف الصالح فبساطة مصحوبة باسداء التكرمه للجائع والمحروم وابن السبيل ومظهر من مظاهر تعلق الشعب بمليكه ومثل أعلى في تقرب الملوك من رعاياهم .

وأهل الرياض يشتغلون بجلب المتاجر من « الاحساء والكويت والبحرين » يتبادلون وتلك البلاد مصنوعات نجد وماشيتها ، بل هناك مورد عظيم هو اجادة النجديين استخراج اللؤلؤ والمرجان من قاع الخليج الفارسي ، أما الحالة الزراعية فليست بذات شأن يذكر حول الرياض اللهم إلا بقدر حاجه السكان فيمكن أن توصف الرياض والحالة هذه بأنها مركزي تجاري ومقر حكم تلك البلاد لاأكثر ولا أقل . ويتداول الاهالي هناك بالجنيه الانكليزي والعثماني والروبية الهندية والريال الشوشي الذي أسلفنا ذكره عن « حائل » وأجزاء هذه الريال « الجديدة » بينما أجزاؤه في حائل « البشالك » ويساوي

الريال في الرياض ٤٣ جديدة وأجزاء الجديدة ستة قطع من البرونز مطلق عليها اسم (بيزه)

عند الامير سعود

وقد دعاني سمو الامير سعود إلى زيارته في قصره الخاص فكان أول ماابتدرني به قوله (لن أنسى ماعشت أهل مصر وحفاوتهم بي كما لاتبرح عن مخيلتي تلك المكارم التى طوقت بها عنقي الحكومة المصرية ، ولا أنسى على مدى الدهر عطف حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الاول أثناء تشرفي بمقابلته السنية فهي صفحات خالدة مافتئت أقلبها منذ وطئت قدماي أرض بلادي بعد عودتي من مصر ، وإن قومي ليحفظون كل ذلك لمصر ويعدون كل مانلته من مظاهر الحفاوة والتكريم انما اختصوا هم به فكان موجهاً لهم بالذات قال : ولن أنسى كذلك أن أخصّ بالشكر رجال الصحافة المصرية الذين برهنوا على عظيم محبتهم للاسلام وأهله . واني لذلك لازلت أدعو لمصر بكل خير وأتمنى من صميم قلبي احكام صلات الود والصفاء بين البلدين)

حياة الملك اليومية

لقد اعتاد جلالته أن ينهض قبل انبثاق الفجر دون أن يلزم أحداً من خاصته بالنهوض في ذلك الوقت وبعد أن يتوضأ ويتلو ماتيسر من القرآن الكريم ويؤذن المؤذن بصلاة الفجر يقصد

الى مسجد القصر حيث يكون في انتظاره هنـاك عدد من عبيده فيؤدي صلاة الفجر ومن ثم يعود الى إيوانه فيتناول طعام الافطار مع من يكون حاضرا من أبنائه وأفراد أسرته حتى اذا فرغ من هذا انتقل الى مكتبه الخاص في ديوانه فيأخذ في مطالعة الرسائل واستعراض بعض المسائل وبحثها وإبداء رأيه كتابة ويظل كذلك حتى بعد شروق الشمس بساعة ، ومن ثم ينتقل الى احدى قاعات الاستقبال حيث يستقبل بعض أخصائه ويرسل في طلب بعض من لهم به شأن هام وبعد ذلك يستقبل وفود « الاخوان » فيقضي في الاحتفاء بهم ومسامرتهم وسماع مايدلون به اليـه من الاقوال والاحوال وقتـاً غير قليل ، وممـا يذكر أن أولئـك الاخوان يتحدثون الى مليكهم كأنما يخاطبون واحدا من اخوانهم البدو في الصحراء وليس ذلك منهم كما يتبادر الى بعض الاذهان « جلفة بدوية » ولا قلة احترام لملوكهم ولكنهم يفعلون ذلك تمسكا بسنة السلف الصالح والسير على ما كان عليه المسلمون في أيام الخلفاء الراشدين ، مثال ذلك اني رأيت أحدهم يخاطب مولاه الملك بقوله « ياعبدالعزيز » ! فاستكبرت منه ذلك وكدت لا أصدق سمعي لحقارة شأن المتكلم وسعة صدر جلالة المخاطب لولا أن أحدهم همس في أذني قائلا « ذلك هو الدستور الذي شرعه لنا هذا الملك فهو يقبله على العين والرأس ولا يرضى سواه بديلا »

في المجلس الكبير

وعنـد الضحى ينتقل جلالته الى قاعة تعرف باسم « المجلس الكبير » حيث يجتمع فيها عادة أمراء الاسرة الرشيدية والعايدية وهذه الاخيرة هي الاسرة التي كانت تحكم بلاد أبها التابعة لحكم نجد الآن وكذلك بعض كبار أعيان نجد وزعماء باديتها ، وهناك في هذا المجلس يستعرض جلالته الشؤون العامة في كل مادق وجل. فبينما تراه يعلق على حديث نبوي اذا به يصل هـذا التعليق بمسألة عامة أو بحادثة تاريخية أو بأمر مستقبل يريد أن يومىء اليه بهـذا الحديث، ومع أن جلالته صريح في بيانه فهو يتجنب بقدر الامكان المغامز والايماء وما عـداه أن يؤول تأويلا مسيئا ولا سيما عند بعض أفراد أسرة آل الرشيد وآل عايد . ولهذه المناسبة أذكر أن جلالته تفضل بدعوتي الى هذا المجلس وفي الاثناء لفت نظري الى نبذة في إحدى الصحف السورية جاء فيها أن السيد عبد الله بن عايد ترك مكة المكرمة وانه حشد جيشا على جلالة الملك ابن السعود في حين أن السيد المشار اليه كان بين الحاضرين في المجلس ! فلما قرأت هذا ابتسمت وقلت لجلالته (وما آفة الاخبـار إلا رواتها) فلا يصح ياصاحب الجلالة أن تكون مثل هـذه الرواية المكذوبة دليلا قائما على ان الصحف سواسية في هذا الباب . يدلك على ذلك ان الصحافة المصرية مثلا شديدة التدقيق في رواية الاخبار فهي لاتقنع من صحة

رواية بما يصل اليها من مصدر معين إلا اذا تثبتت كل التثبت من صدقه ، وكذلك الشأن في كل صحيفة تحترم نفسها ولا تبغي سوى تقرير الحقائق وانارة أذهان الجمهور بها . وهنا قال جلالته انه يجل الصحف المصرية ويعتبرها في طليعة صحف العالم الاسلامي وما كان يقصد من لفت نظري الى تلك النبذة إلا ليلفتني كصحفي الى أن كل مايقال غير صحيح وان جلالته وجيرانه وكل من يتصل بملكه من كبـار رجال العشائر وأقطابها على اتفاق ووئام ، فأمّن المجلس على قول جلالته وفي مقدمتهم السيد عبد الله المذكور

وبعد أن ينفض ذلك المجلس يذهب جلالته الى القصر الخاص الذي يقيم فيه والده الشيخ وهو رغما عن كونه في العقد التاسع من عمره على جانب عظيم من الذكاء وسرعة البديهة ورقة الجانب فضلا عن كونه محبوبا من سائر أهل نجـد ، وبعد أن يقضي في حضرته برهة ينتقل الى زيارة كبرى شقيقاته الاميرة « نوره » التي يجلها جلالته ويضعها في مكان خاص من نفسه فقد جرت عادة أهل نجد انهم يخصون كبرى شقيقاتهم بأجلى مظاهر التوقير والاجـلال . ومما أذكره أيضاً بالشكر والثناء لهـذه الأميرة الجليلة ذلك الكرم العربي ومكارم الخلال فقـد كانت تبعث إلي يومياً بمختلف ألوان الطعام ولا تنفك تستفسر عن حالي وتبالغ في إكرام جانبي .

ومن عادة جلالته بعد أداء فريضة العشاء أن يطوف بموظفي ديوانه ويستطلع مالديهم من الاعمال ويزودهم بما يعن له من الآراء

وفي بعض الاحيان عند ماترى الظروف مناسبة يستقل سيارته ومعه بعض أفراد حاشيته ويذهب للصيد والقنص في البادية ، وقد رأيت بين سيارات جلالته سيارة يهتم بها جد الاهتمام ولا يركبها إلا في الحملات الهامة ، تلك هي السيارة الفخمة التي أهداها اليه حضرة صاحب الجلالة فؤاد الاول صاحب النيل .

بين زعماء قبائل نجد

وعلى ذكر ماروته بعض الصحف أثناء وجود سعادة الطيب بك الهزازي رئيس ديوان جلالة الملك ابن السعود في مصر أخيراً عن وجود خلاف بين بعض زعماء قبائل نجد أمثال فيصل الدويش زعيم قبيلة الارطاوية وسلطان بن بجاد زعيم قبيلة الغطغط من جهة وبين جلالة ابن السعود من جهة أخرى ، أقول اني سمعت شيئاً في هذا الموضوع أثناء وجودي في «الرياض» ذلك انهم يعزون وقوع ذلك الخلاف الى حادث الاعتداء على المحمل في منى فقد قيل ان القتلى من النجديين كانوا من قبيلة فيصل الدويش وقد اعتبر بعض غلاة هذه القبيلة ان تصرف جلالة الملك عبد العزيز كان مهينا لهم وكان من واجبه أن يثأر لهم ، ولكن ما كان أخيب رجاء الغلاة عند ماعلموا ان فيصلا هذا ذهب الى «الرياض» عقب وصول جلالة الملك بعد أن تعرف على الحقيقة من جلالته وأمن عليها وانقضى بذلك كل قيل وقال .

أما سلطان بن مجاد فقد قيل ان نزاعاً قام بينه وبين جلالة الملك، على تطبيق بعض الامور الشرعية ولكنه بعد أن تبين الحقيقة قصد الى «الرياض» وقابل جلالة الملك وخرج من لدنه شاكراً . ولكن يظهر ان بعض دعاة السوء أرادوا بث دعايتهم في قلب نجـد بعد أن فشلوا في الحجاز فلم يفلحوا ، وهكذا عادت المياه الى مجاريها وانقضى الأمر .

عقائد النجديين في الحياة والخلود

ومما يستحق الذكر عن عادات أهل نجد أنهم يعتقدون أن النجدي سواء أكان حضريا أم بدويا انما خلق لعبادة الله وطاعة شريعته وانه كتب له في لوح القضاء أجلا محدوداً فعليه أن يعمل في حياته مايرضي الله الى يوم مماته وفي يقينه أنه منتقل الى جوار ربه فيجازي على ما كسبته يداه إن خيراً فخير أو شراً فشر ، ومن هنا يجيء علة انعدام الجرائم على اختلاف ضروبها حتى في الحرب ، فهم يعتقدون أن من قتل عدوا لدين الله وشرعة نبيه الكريم دخل الجنة ، ومن قتل منهم في سبيل الله فقد أجزل له ثواب عمله ، فترى البدوي منهم وهو في سبيل الجهـاد يحمل أكفانه وهو ممتليء يقينا وايمانا بصحة عقيدته، ولعل ذلك كان سببا في بذل مهجهم في الحروب واندفاعهم اليها بغير تردد حتى اذا سقط أحدهم في حومة الوغي قتيلا كان آخر ما يصل الى سمعه ممن بقي حيا « واحليلاه ، لقد سبقتني

الى الجنـة » أما في حالة هزيمة عدوهم واطباقهم عليه تراهم يقولون متهللين « يا أهل التوحيد . ياأهل التوحيد . إياك نعبد وإياك نستعين » ويطلقون على دوي الرصاص ـ ريح الجنة ـ حتى اذا أصيب أحدهم أثناء القتـال في ظهره عدوه جبانا يحاول الفرار لا يستحق عنـدهم تـكريما حتى ولا الدفن .

أما عقائدهم الدينية فهي كما أسفلنا اتباعهم تعاليم السنة النبوية فلا يقيمون المآتم لموتاهم ولا يشيدون القباب على الاضرحة لا ولا على المساجد فهم يعتقدون ان الموتى في هذه الدنيا لا يستحقون تكبيرا ولا تعظيما من جانبهم ماداموا سيبعثون بعثا جديدا وينعمون بنعيم الجنة

ولعل في هذا بعض الشبه من عقيدة البعث بما كان يعتقده قدماء المصريين بما هو مسطور على توابيت مومياتهم وما كانوا يعدونه من الملابس والأطعمة ونحوها استعداداً ليوم النشور ، على ان هناك بطبيعة الحال فارقا كبيراً بين العقيدتين لا يخفى ، فان قدماء المصريين بتحنيطهم جثث موتاهم واعدادهم الطعام ونحوه انما كانوا يعتقدون ان موتاهم سيبعثون بأجسامهم وهياكلهم البشرية بعينها في هذه الدنيا ، ولكن أهل نجد يعتقدون كما يعتقد أهل السنة والجماعة من أهل المذاهب الأربعة بالبعث المعروف في حياة غير هذه الحياة ،

حياة النجديين الاجتماعية

ان أهل نجـد ولا سيما سكان باديتها يعـدون الارز طعاما

أساسيا لهم بمثابة الخبز عند سائر الشعوب الاخرى ، ولما كان هذا النوع من الطعام يستلزم تناوله بالملاعق فان النجديين لا يستعملون سوى قبضة أيديهم . أما سائر ألوان الطعام الناضجة الاخرى فلا يمكن أن تخلو من اضافة مسحوق « الكركم » عليها - ويسمونه البزار - ومع كثرة الالبان هناك فانهم لا يعرفون الجبن ولكنهم يصنعون شيئا كثير الشبه به يسمونه « البقل » وطريقة صنعه أنهم يغلون اللبن حتى يجف ومن ثم يضعونه في الهواء فيزداد جفافا ويقطعونه قطعا صغيرة بعد أن يضيفوا عليه قليلا من الملح ، ومن عوائدهم أن لا يتناولوا البصل نيئا وحجتهم في ذلك عدم مضايقة المصلين برائحته . وهم لا يهتمون بتصنيف الطعام ألوانا ولا يهتمون بطهي الحلوى تمشيا مع ما كان عليه السلف الصالح

ولا يوجد في نجد كلها سوى طبيب واحد هو طبيب الملك الخاص ومع أنه وحيد زمانه هناك فان عمله قليل والعلة في ذلك أن أسقام الناس تكاد تكون معدومة بسبب تقشفهم في المعيشة وفي تناول الاطعمة ولان يد الطبيعة هي التي تقوم مقام الطبيب هناك ، يدلك على ذلك أن الوفيات هناك قليلة جداً ويندر أن يموت شخص في سن الاربعين أو الخمسين ، ولهذه المناسبة اذكر مرة انجاء بدوي الى طبيب الملك أثناء وجوده وطلب اليه أن يصف دواء لامرأته التي كانت تقيم في قلب البادية وعلى مسير ثلاثة أيام فاعتذر الطبيب

عن وصف الدواء إلا إذا عاين المريضة وشخص داءها فما كان من الاعرابي إلا أن هزأ بالطبيب والدواء وقال لعلها تكون قد شفيت فلا حاجة بنا اليك وانصرف لسبيله وجاء بدوى آخر كان قد أصيب برصاصة في جانب من كتفه شلت ساعده الايمن فلما أفهمه الطبيب أن إخراج الرصاصة يستدعي التخدير وإجراء عملية جراحية ضحك وقال « لا والله لن أموت إلا بريح الجنة — ويقصد بذلك برصاصة أخرى لا أن يموت على مشرحة الطبيب »

ومن أعجب العجب أن أهل البادية الذين يقطعون القفار الشاسعة بلا دليل صناعي أو نحوه بل برا صد الشمس والقمر والنجوم وألوان رمال الارض يستطيعون أن ينبئوك بأن أشخاصاً يتحدثون وهم على بعد نصف يوم على ظهور الابل في الصحراء . ولعل ذلك يرجع إلى شدة حاسة السمع والبصر عندهم وصفاء أذهانهم وإلى قوة اتجاه الريح الذي ينقل نبرات الاصوات مع الاثير

والمواقيت هناك بالحساب الهجري وقد يريد بعضهم أن يذكر لك مثلا العام الذي انقضى منذ عشر سنوات فبدلاً من أن يقول لك بالرقم يذكر لك أهم وقائع ذلك العهد كان يقول —سنة الاحساء أو سنة الحجاز ـ وهلم جرا . ولا يمكن أن يخطيء أحدهم في فهم عدد السنوات التي مضت على ذلك الحادث أو أن يكون جاهلا لأهم ماجري من وقائع تلك السنة . أما نطقهم العربي فلهجتهم تختلف عن لهجة عرب مصر بل وعرب الحجاز أيضا فهم يبدلون الكاف

تاء مشددة ، ومن عاداتهم أنهم قبلما يبدأ أحدهم بمحادثة آخر يدعو له بطول العمر وهناك اختصار لجملة أو لمدة جمل تقع في حرفي «س م» بفتح السين وسكون الميم فعند مايقـدم الساقي القهوة بدل أن يقول «بسم الله» يختصرها بقوله «سم» واذا أراد أحدهم أن يصدع بأمر فبـدل أن يقول سمعا وطاعة أجاب بكلمة «سم» واذا ناديت عليّ وأراد أن يقول لك اني سامع هتف قائلا «سم» وهلم جرا . وللقراءة عند أكثر قرائهم نغمه مخصوصـة يخيل الى سامعها من غير النجديين أنه يستمع «لا خنف» ولـكنهم يفعلون ذلك مبالغة في الخشوع والتصوف ولا سيما عند قراءة كتاب الله العزيز

ولإسدال اللحي عندهم شأن كبير فهم يعدون من حلق لحيته مخالفا لسنة رسول الله ، وقد قص عليّ أحدهم وهو يعبث بلحيته اعتزازا بها - بعد استئذان الدكتور محجوب — أن اثنين اختلفا في أمر إطالة اللحية من عدمها وكان أحدهما أجردها فذهبا الى بيت رسول الله عليه السلام يحتكمان فلما طرقا باب الدار أجابتهما السيدة عائشة رضي الله عنها بأن الرسول غائب فذهبا ، ثم عادا وطرقاه ثانيا وكان ﷺ لم يعد بعـد فأرادت السيدة عائشة أن تقسم بأنه لم يعد فقالت (والذي فضل الرجال باللحي أن الرسول ليس موجودا) وهكذا اكتفى ذو اللحية بهذا الحـكم وانتصر على زميله وانتهى الامر

قبائل بني صخر

أما قبائل بني صخر النازلة في حدود مملكة نجد من ناحية شرق الاردن فهي لاتزال على فطرتها لاتعرف من الاسلام إلا اسمه وقلما تجد من يعرف أداء الصلاة بفروضها ومع أنهم خاضعون لحكم جلالة الملك ابن السعود الآن إلا أنهم لايزالون في عزلتهم التي كانوا عليها قبل دخولهم في حكم جلالته فلهم عوائدهم وتقاليدهم ولهم أزياؤهم وأهم مافي أمرهم أنهم لايأكلون القمح طحينا بل يسلقونه على مثال (البليلة) المعروفة في مصر ويعتقد بنوصخر أنهم مصريون أصلا وبنو عمومة للمصريين وقد كان جدهم الأول مصريا وقد كان لهذا الاعتقاد أثره معي فقد استقبلني بعض مشايخ تلك القبيلة بأجلى مراسم التأهيل والترحيب وشرعوا يقيمون الحفلات كأنما جاءهم قريب جليل القدر من ضفاف النيل .

وقد شهدت حفلة عرس وقد جيء بقطعة من خشب العود وأمسك باحدى طرفيه كل من الزوج ووالد الزوجة ومن ثم حاط بهما الحاضرون وهنا قال والد الزوجة (وحياة العود والرب المعبود جوزت ابنتي) فيرد عليه الزوج قائلا (تجوزت ابنتك) وعلى أثر ذلك تنحر الذبائح وتقام المآدب وينتهي الامر . والى هنا نكون قد انتهينا من وصف بلاد نجد، طرقها ومسالكها ، عوائدها وتقاليدها ، ودينها وطبائع أهلها من حضر وبدو، وقد رأينا قبل مبارحتنا الرياض

عاصمة نجد أن نحظى بمقابلة جلالة الملك ابن السعود كي نحصل منه
على حديث مستفيض في شئون بلاده العـامة من سياسية واجتماعية
ونستطلع رأيه في شأن الخلافة الاسلامية وماجرى في حادث الاعتداء
على المحمل المصري والنظام الجديد الذي وضعته حكومته لحـكم
الحجاز بعد فتحه ورأيه في توظيف المصريين في مناصب دولته ،
وقد أبدى جلالته عظيم ارتياحه إلى محادثتنا فيما تقدم والى القراء
هذا الحديث

حديث ملـكي هام

بدأ جلالته حديثه معنـا قائلا أرجو أن لاتكونوا قد تأثرتم
بشيء مما بدا لـكم من خشونة بعض سكان البادية وجفاء طباعها
أو شدة تعصبهم للدين فذلك أمر يرجع إلي الفطرة التي نشأوا عليها
على أني شخصيا وكبار أقطاب دولتي لسنا على شيء من هذا يدلك
أن مندوبي الدول ذات الشأن بنا يدخلون معنا في مفاوضات طويلة
فلا نشتد وإياهم أو نسلك معهم مسلـكا ينأى بهم عنا بخـلاف
ماشاهدتموه أنتم شخصيا إذا طوحت بكم أحاديث كهذه مع قبائل
البدو الذين هم على الفطرة ، وأني أحمد الله أن شعبا كهذا يدين بالولاء
لمليكه ويرفع كلمته عند الشدة ويبذل مهجه عند الضرورة ويقنع بالقليل
من أود الحياة ولعل أخبار حربنا مع الشريفين وما أبداه شعبنا من
بسالة وأقدام وتفان في رفع راية مليكه أكبر شاهد على ما أقول

سألنا جلالته ـ وهل تتنازلون جلالتكم ببيان الاسباب المباشرة لقيام الحرب الحجازية الاخيرة ؟

فاجاب : نعم . واني أقسم لك باني ما كنت أبغي الحرب معهم لولا أن الشريف حسينا هو الذي ألجأنا الى قتاله بما ارتكبته عصابته في السنوات الاخيرة من سوء معاملة حجاج بيت الله الحرام ، ليس بالنسبة للنجديين وحدهم بل وسواهم من أمم الاسلام الاخرى ، ولقد صبرنا عليهم صبراً جميلا وفوضنا الامر فيهم لله تعالى فما ازدادوا الا بغيا وعدوانا وأنذرناهم بداءة بدء بسوء المصير ولكنهم تمادوا عتواً وأعمل رجالهم صلفا وارهاقا مما لاقبل لنا على المزيد من الصبر عليه فاضطررنا في نهاية الامر إلى تسيير جيشنا الى الحجاز واذا سمعت مني كلمة - - جيش فليس ذلك الجيش الا أولئك البدو البواسل الذين تشاهدهم حولك هنا وهناك - - فعلنا ذلك وكان يقيننا أننا نطهر أرض الحجاز من أهل البغي ونؤمن طريق الحجاج ونحمي أرواح المسلمين ، ليس في نيتنا أن نتملك الحجاز لذاته أو نزيد ملكنا بسطة وسلطانا فقد كنا نعلم أن لاهل الحجاز عقائد وتقاليد تخالف عقائدنا وتقاليدنا وهناك عصابات القتل والنهب والاخلال بالامن من الصعب قطع دابرها أو تحويل عقائدهم وأحكامهم الى مثل الحال في بلادنا ، نجد ، وكنا نعلم أكثر من ذلك أن امتلاك الحجاز ربما يسبب لنا متاعب ويفتح الباب لتدخل بعض الدول الاوربية معنا ولكنا خضنا الحرب مع ذلك تحت تأثير غرضنا

الاسمى الذي أسلفت لك بيانه وهكذا كتب لنا النصر بعد حرب لم تدم طويلا بسبب تذمر الحجازيين من سوء حكم الشريف حتى لقد كان رجالنا لا يلقون في أكثر المواقع الحربية مقاومة تذكر وكنا كلما دخلنا مكانا أهل بنا أهله كافة بل ما كدنا نطرد الشريف وعصبته ونقبض على ناصية الامور في الحجاز ونعلن لاهلها عدم رغبتنا في حكم الحجاز حتى اجتمع زعماؤه وأصحاب الكلمة فيه وأجمعوا رأيهم على مبايعتنا الملك فيه وهكذا لم نر بدا من أن نقبل هذه البيعة وأن نقبل حكم الحجاز بدين الله وسنة نبيه الكريم

وسألنا جلالته — وماذا أبدلتم من نظام الحكم في الحجاز ؟

فاجاب جلالته : أن النظام الاساسي لحكومته لم يتغير فأبقينا كبار الموظفين الذين عهدنا فيهم الصدق والاخلاص لنا ، بل الذين كانوا في مقدمة الذين بايعونا الملك وكل ما أحدثناه هو ابدال القوانين التي شرعها لهم الشريف باتباع حكم الشرع كما هو الحال في نجد . وقد استقبل الناس ماشرعناه لهم بمزيد الابتهاج والرضى وقد كان لذلك أثره الفعال في سرعة تبدل الحال واستتباب الامن وقطع دابر الفوضى من أرض الحجاز كما سوف ترى عند ما تزورها

وسألنا جلالته — قلتم لنا أنه لم يكن بد من تدخل بعض الدول في شأن من يحكم الحجاز فماذا تقصدون جلالتكم بتلك الدول ؟

فأجابنا : تعلمون أن أكثر دول أوربا وفي مقدمتهم انجلترا تحكم أمما اسلامية فكان من البديهي أنها تهتم بشئون حجاجها .

مثل ذلك أن الازهر الشريف فيه رواق لكل دولة ومن حقها أن تتدخل مع الحكومة المصرية في كل مايمس شئون شيوخه وطلابه، فالمسألة في حكم الحجاز من حيث تدخل الدول لا تتعدى هذا الشأن فقط واذا جاز لي أن أخص بعض الدول بالثناء فانما هي انجلترا التي برهنت في أكثر من موقف على أنها لا تبغي بنا تحكما فيما هو خارج عن حدودها فما دام رعاياها من الحجاج في أمن واطمئنان وأسباب رعاية صحتهم متوفرة بينهم فهي لا تحرك شأنا قل أو عظم

سألنا جلالته — وما رأيكم في الخلافة الاسلامية ولماذا لا ترغبون فيها ؟

فأجابني مبتسما: إني أعتذر لك عن الخوض في هذا الشأن الخطير لأسباب أراها لا تتفق مع تمسك أهل بلادنا بنصوص حكم الشرع ولا أرى من اللياقة وحسن المجاملة أن أبسط معك في هذا الموضوع .

قلنا لجلالته — وما رأيكم في توظيف أذكياء المصريين في وظائف دولتكم ؟

فأجابنا جلالته قائلا : ان حبي وتقديري لابناء مصر فوق ماتتصور أنت فهذا مستشاري الامين وساعدي الايمن فضيلة الشيخ حافظ وهبه له عندي المقام الاسمى وعظيم التقدير وإني أرحب بمن يرغب في تولي مناصب البلاد من أبناء مصر لولا أني أعرف بأن مالية الدولة لا تتفق وما يستحقه أبناء هذا البلد الغني الوفير الخيرات واني أرجو الله، أن يتسع نطاق العمران في بلادي على مدى الايام

وتزيد موارد دولتي فيكون المجال فسيحا أمام هؤلاء الاخوان الذين أتمنى وجود أكثر عدد منهم بين موظفي حكومتي.

قلنا لجلالته — وما رأيكم في حادث المحمل المصري فأطرق جلالته قليلا ثم قال: ليت تلك الساعة العصيبة التي وقع فيها هذا الحادث المنكود لم تكن مسطورة في حساب الدهر فقد جرها أناس لا ينظرون إلى ابعد من أنوفهم وهم في ساعة غليان. أحمد الله الذي كتب لحامية المحمل المصري السلامة ولم يحملنا وزر ماجرى أو ما كان أن يكون فمصر هي أقرب دول الاسلام جواراً لنا وجلالة مليكها فؤاد الاول له في فؤادنا أجل مكان واني أؤكد لك بأنه على توالي الايام سيدرك أمثال الذين أثاروا هذا الحادث برعونتهم أن لا شيء أحب اليهم من تمتع الاراضي المقدسة بأعظم أنواع السلام والطمأنينة

وكان هذا خاتمة حديثنا مع جلالته وبعد أن شكرنا مالقينا في بلاده من ضروب الحفاوة والاكرام وما خصنا به جلالته وسائر أفراد أسرته الكريمة من الرعاية والعطف استأذناه في السفر إلى مكة المكرمة.

الى أم القرى

لا نأتي على نهاية هذا المقال حتى نكون قد انهينا بالقراء من وصف تلك الرحلة فيكون مسك الختام. ولقد أسلفنا القول في مقالنا السالف بأننا سنقصر هذا المقال على وصف رحلتنا في أرض الحجاز بعد أن قضينا نيفا وشهراً في عاصمة نجد وأكثر من شهرين في التنقل

بين بلاد نجد ، وكان في نيتنا أن نقوم برحلة طويلة نستعرض فيها سائر مدن الحجاز لولا أن داهمنا القيظ بخيله ورجله فقد كانت درجة الحرارة في شهر مارس أشد منها في شهر يوليو بالقاهرة — حيث نصطليها الآن . . — وعلى ذلك لم نر بدأ من الاقتصار على زيارة مكة المكرمة وفي الواقع انها كل شيء في الحجاز بل هي الحجاز كله فأم القرى هي مظهر حياة الحجاز والحجازيين ، على انها في الاثناء الاخيرة وبعد أن حكمها الوهابيون قد تطورت تطورا يدفع بالباحث الرحالة الى استطلاع قديمها وجديدها .

تركنا «الرياض» وكان من حسن الحظ أن رافقنا في رحلتنا منها الى أم القرى سعادة الطيب بك الهزازي رئيس ديوان جلالة الملك ابن السعود يحمل الهدية السعودية الى صاحب السمو الامير فاروق ولي عهد الدولة المصرية وهي الجياد الاربعة التي وصلت الى مصر منذ شهرين فقطعنا ستة أيام على ظهور الابل لم نشهد في طريقنا أثرا لبلد الى أن صادفنا قرية تدعى «الشعرا» هي بمثابة محط لرحال القوافل وتزويد رجالها بما يحتاجون اليه من مؤونة وماء ولهذا السبب ترى أسعار الحاجيات فيها مرتفعة جدا ، وتركنا هذه القرية وواصلنا السير بين وديان وحزون فتارة نصعد الى هضاب عالية وقمم جبال شامخة ثم ننخفض الى سفوح بعيدة الغور وعرة المسالك حتى اذا اذا احتجنا الى الماء لم نجد حاجتنا منه إلا من آبار بعضها ذات ماء آسن أو ملح ، وهكذا قطعنا عشرة أيام على هـذه الحال الى أن

بلغنا بقعة يسمونها « السيل » وقد سميت كذلك لوقوفها في سفح
سلسلة جبال تنحدر من قممها مياه الامطار فتكون شبه بحيرات صغيرة
وفي هذه البقعة يتحتم على قاصدي أم القرى أن يحرموا استعدادا
لدخول المدينة المقدسة ، فخلعنا ملابسنا العادية وأحرمنا وواصلنا
السير حتى اذا بانت أمام أنظارنا قباب مكة ومبانيها الشاهقة هتفنا
مع رجال القافلة قائلين « لبيك اللهم لبيك لا شريك لك ، السعد
والخير بين يديك » وفي مساء ذلك اليوم بلغنا أبواب مكة فكان
أول ماقمنا به أن طفنا حول البيت الكريم وسعينا بين الصفا والمروة
سبع مرات ، وهذا فرض واجب على كل داخل مكة ، وكان رجال
الحكومة قد أعدوا لنا منزلا خاصاً قضينا فيه ليلتنا ، وفي اليوم التالي
قابلنا سمو الامير فيصل نائب جلالة والده في حكم الحجاز فشاهدنا
فيه أميرا عربيا حلو الشمائل عذب الحديث ذكي الفؤاد وكان ارتياحه
الى رحلتي عظيما ولم ينس أثناء الحديث أن يذكر مصر وجلالة مليكها
ورجال الاعلام في مصر بنوع خاص بأحسن مايذكر من طيب الحديث

في مكة المكرمة

ومما لاحظناه وكان آنئذ شهر رمضان أن أكثر المتاجر
والحوانيت مغلقة وحركة المارة في الشوارع خفيفة وهي حالة تختلف
اختلافا كلياً عن مثلها في سائر المدن الاسلامية الأخرى. وقد بحثنا
عن السر في ذلك فعرفنا ان سكان مكة ينقطعون بكلياتهم وجزئياتهم

خلال شهر الصوم للعبادة والتقديس ونسيان متاع الدنيا ومشاغلها .

ومكة مدينة كبرى بحق أكثر مبانيها مشيدة بالاحجار ذات وجهات بارزة بشكل « مشربيات » بعضها على نمط عربي بحت والبعض الآخر يشبه المباني المصرية التي شيدت خلال نصف القرن الماضي ، وهي كثيرة الاسواق يجد فيها المسافر كل ماتشتهيه نفسه من الحاجيات من ملبس ومأكل وكماليات ولا سيما بعض الزخارف التي يجيدها صناع أصلهم من الهند والعراق والشام وبعض أهل مكة أنفسهم ، فأسواق الحرير مثلا مع ان دودة القز لاتعيش في الحجاز وقزها يجلب من دمشق الشام وبيروت، يشتغلون بصنعها حتى اذا عرضت مصنوعات مكة الحريرية على طلابها ميزوها وأيقنوا انها من صنع مكة ، على ان سائر السلع والبضائع مرتفعة الاسعار حتى الفاكهة وبعض الخضروات بسبب استجلابها من الخارج وضرب الرسوم الجمركية فادحة عليها ، أما اللحم والسمن فكثير جداً وأثمانه رخيصة عنها في مصر .

أما الحالة الصحية بسبب قدم المدينة وضيق شوارعها وعدم تنسيقها وشدة حرها وعدم اعتناء الحكومات البائدة بتوفير أسباب الصحة العامة فليست حسنة ، ولكن الحكومة الحاضرة شرعت في استجلاب المرشحات للمياه وتوسيع بعض الشوارع واضاءتها ، كل ذلك يحمل على الاعتقاد بحسن الحال في مستقبل الايام

ويبلغ تعداد سكان مكة والقرى المجاورة لها زهاء مائة ألف

نسمة وأكثرهم طوال القامة يضرب لونهم للسمرة مع نحافة غالبة في الاجسام على انهم يتمتعون بصحة جيدة ، وظاهر ان اختلاط العنصرين التركي والمصري بهؤلاء السكان أحدث تغييراً في لهجة حديثهم ودرجة تفكيرهم وذهنياتهم ، وهناك عدد غير قليل من الاغنياء الموسرين الذين أثروا من تبادل المتاجر والأرباح الطائلة التي دخلت عليهم في أوقات الحج ، يجد الزائر المصري في منازلهم من أدوات الترف وجمال التنسيق مايجده في بيوت بعض كبراء مصر وتناول القهوة هناك شائع على الطريقتين المصرية والتركية إلا أن شرب الشاي هو الأكثر شيوعا .

أما عقائدهم الدينية فهم أقل تعصباً الدين من أهل نجد ، وقد لاحظت ان بعضهم مع إحلال الحكم الوهابي وتطبيقه في الحجاز لايزال يستبيح لنفسه بعض المحرمات الوهابية، مثال ذلك ان بعضهم لايزال على عادته في تدخين الدخان والتمباك إلا أنه لايجسر على تدخينه جهاراً ، وهناك بعض أصحاب القهوات ينصبون أستاراً داخل محلاتهم يستتر وراءها مدخنو النارجيلة والسجائر

والماء هناك شأن يذكر ولا سيما في موسم الحج فيكثر استهلاك الماء من الآبار فتقل مياهها بطبيعة الحال ولا سيما في الطريق ما بين مكة وجبل عرفات . وكان من أهم ما اتجهت اليه أنظار جلالة الملك ابن السعود بعد فتحه الحجاز هو العمل على حل هذه المشكلة الهامة فأمر ببناء أحواض تخزن فيها المياه بكثرة قبل تدفق سيول الحجاج

وبذلك يجدون حاجتهم منها بسهولة وبثمن مقبول. والماء هناك نوعان: عذب وملح، فالعذب يستخرج من عين تسير في قناة من الحجر تحت الارض وهي المعروفة «بعين زبيدة» ويبتديء أولها قبل منطقة السيل التي أسلفنا ذكرها، ويروى ان الملكة زبيدة زوجة هرون الرشيد هي التي أنشأت هذه القناة فسهلت على أهل مكة سبيل الحصول على المياه العذبة، ولهذه العين عدة فتحات يزدحم عندها السقاة لأخذ حاجتهم منها ويحدثون ضجيجاً يصم الآذان. أما المياه الملحة فتستخرج من آبار ارتوازية وهي ليست ملحة جداً ولكن الحاجة تدفع بعض الناس الى استعمالها، ومياه «بئر زمزم» الكائنة وسط الحرم الشريف من هذا النوع ولا يتناولها الناس إلا على سبيل البركة

ويعتمد أهل الحجاز في معيشتهم على موسم الحج الذي يدوم حوالي ثلاثة شهور، فالمباني تؤجر لسكنى الحجاج بأجور مرتفعة والتجار والصناع يعرضون مايدخرونه من البضائع والمصنوعات على الحجاج، وهناك طائفة الصيارف ينتشرون في زمن الحج ويربحون أرباحا طائلة من تبادل أنواع العملة المختلفة التي تحملها الحجاج. وعلى وجه العموم فان أهل مكة يعتمدون على قوام معيشتهم خلال بقية أيام العام على مايجنونه من أرباح مواسم الحج.

ومما يلاحظه زوار مكة كثرة المستجدين من السودانيين الذين يسمونهم «التكارنة» وهؤلاء ممن تضيق بهم سبل العيش.

فينزحون الى جوار الحرم الشريف رجاء العيش مما يجود به أهل الخير، وقد شهدت نفراً من أولئك السودانيين بحالة تفتت الاكباد ولست أدري ماهو نصيبهم من حسنات حكومتهم الغنية في ديارهم

مجلس الشورى

أما نظام وضع الحكومة الحجازية فباق كما كان عليه في الزمن السابق من حيث تنظيم الادارات والاختصاصات وكل ماستجد هو استبدال القانونين المدني والجنائي بانفاذ أحكام الشريعة السمحة وفاقا لما أفضى به إليّ جلالة الملك عبد العزيز في حديثه ، وقد زاد جلالته بأن أنشأ مجلساً للشورى على نحو ماوافتنا به الانباء الاخيرة ، ولعل هذا أجل ما استبشر به الحجازيون وارتاحت له سائر الأمم والشعوب ذات الاتصال بالاراضي المقدسة ، فلسوف يكون من شأن هذا المجلس العمل على نشر العلم ومحاربة الامية وتقوية أسس المعاهد وأهمها « المعهد السعودي » الذي تلقن فيه العلوم الدينية والعمرانية الراقية التي يقوم بتدريسها جماعة من أفاضل الاساتذة المصريين والسوريين وكذلك فانه على الرغم من المنشآت الصحية التي أقامها أخيراً الملك عبدالعزيز وأنفق في سبيلها الاموال الطائلة فان المأمول على يد مجلس الشورى الجديد أن تزداد العناية في هذه الناحية والاكثار من المستوصفات ومخازن الأدوية واعداد الاطباء

الاخصائيين في مختلف الامراض، كذلك قل بتسهيل سبل المواصلات وتعميم المحافظة على الأمن العام .

الامير فيصل

ولما كان جلالة الملك عبد العزيز بحكم اضطراره لمباشرة شؤون نجد على الاخص ولانه في الواقع لايريد أن يحصر همه في ادارة شؤون الحجاز فقد اقتضت حكمته إن يولي سمو الامير فيصل ثاني أنجاله بمثابة قائمقام له في ادارة حكم الحجاز بعد أن آنس من تعلق الحجازيين بذاته وميل الشعب الحجازي الى تسيير شؤون الحكم على مقتضى نظام الشورى : وقد أصاب في ذلك كل الاصابة فقد أظهر هذا الامير الصغير السن حكمة الشيوخ ولباقة الحكماء فجمع القلوب حوله حتى ان ممثلي الدول الاجنبية الذين خالطوه بحكم مهامهم الرسمية شهدوا له بحدة الذكاء وبعد النظر ورقة الجانب ، وكانت رحلته في عواصم أوربا في خلال الصيف الفائت مما أيد حسن ظن هؤلاء وأولئك فيه فنشر دعاية العرب بين أمم الغرب من طريق غير مباشر وعاد يحمل الى قومه وبلاده ثقة الأمم المتمدينة بعد أن كان الاعتقاد السائد بينهم ان بلاد العرب يحكمها أناس بعيدون عن المدنية مجردون عن صفات التهذيب الانساني .

الحج ومراسيمه

ومما يذكر حيال الحج ومراسيمه أن جماعات المطوفين كانوا

إلى ماقبل حكم الملك ابن السعود في الحجاز أشبه بجماعات التراجمة الذين يصاحبون السياح الاجانب في مصر فيمثلون معهم شتى ضروب القبائح ويرسمون أمام أنظارهم أشنع صنوف الموبقات ويصورون لهم الامة المصرية تصويراً ذميا مما حمل الصحافة المصرية في الايام الاخيرة أن تطلب من الحكومة المصرية الوقوف في وجههم ومصادرتهم وسن اللوائح لايقافهم عند حدهم محافظة على كرامة مصر وسمعتها

وقد كان أولئك المطوفون يتلقفون الحجاج ولا سيما بسطاؤهم فيبتزون أموالهم ويلقنونهم أقوالا خرافية منافية للشرع والعقل معاً. مثال ذلك أن يمسك أحدهم بحاج ساذج ويلقنه العبارة التالية بصوت خافت على باب الحرم الشريف كأنما هو ينزل عليه آية من السماء وهذا هو « اللهم إني نويت اعطاء مطوفي مبلغ كذا من المال بنيـة الله ورسوله » فاذا مانطق الحاج بهذه الكلمات حسب أنها سجلت عليه في لوح مسطور لاسبيل إلى نقضه بحال حتى اذا فرغ من طوافه أدى ماتعهد به لذلك المطوف المحتال بغير امهال — وهكذا دواليك ، وأكثر منه مما كان يجري في السر والعلانيـة ، وقد يكون بعضه مايغضب الله ويندي له وجه الآداب . أما الآن فقد قضى نظام الحكم الجـديد على تلك المظالم والبـدع السخيفة ، ووضع أولئك المطوفون تحت مراقبة شديدة ، فان أقل شكاة يرفعها أحد الحجاج ضد أحدهم تكون كافية لابعاده عن حظيرة المطوفين

أما مشكلة الامن العام التي كانت هي في الواقع أم المشاكل

ورأس كل الخطايا مما كان يحسب له المسلمون الراغبون في حج بيت الله الحرام أكبر حساب فقد كانت في طليعة المشاكل التي استطاعت الحكومة الجديدة حلها على أهون سبيل ، فمنذ حل حكم الشرع محل القانون المدني والجنائي ، وأدرك دعاة الشر والاجرام ماهو حكم الشرع حيالهم نزعوا عنهم ثيابهم وغسلوا أيديهم من أوزار الماضي ووضعوا أنفسهم رهن مايقضي به حكم الشرع اذا ماحدثتهم نفوسهم بمخالفة ماتقضي به هاتيك الاحكام ، فكان أهم ماانقطع دابره تلك الفعلة المشئومة التي كان يلجأ اليها أشرار البدو الحجازيين ولا سيما رجال قبيلة عتيبة و بنى هذيل وحرب الذين كانوا يستدينون الاموال من بعضهم بعضاً على أن يقوموا بسدادها من أسلاب الحجاج وما يغنمونه من أموالهم فقد عمد الملك عبد العزيز فوق اعتماده على انفاذ حكم الشرع إلى بسط يده بالاحسان إلى فقراء هؤلاء البدو ، وبذلك أمنت القوافل التجارية على ماتحمله من بضائع وسلع مهما بلغت قيمتها وأمن الحجاج كذلك على أرواحهم ومتاعهم ، يدلك على ذلك أن رجال المحمل المصري عند ماسافروا في العام الماضي أثبت سعادة أمير الحج في تقريره لولاة الامور أن عصابات البدو التي اعتادت غزو المحمل ورجاله لم يبق لها أثر في الحجاز وفي هـذا العام سافر الحجاج المصريون وعادوا دون أن يصيبهم أقل اعتداء حتى قال لنا أحـد الحجاج « أن امرأة مصرية تستطيع أن تبرح مصر بمفردها وتقصـد إلى قلب الحجاز وتقوم بفريضة الحج ثم تعود دون أن

يصيبها أقل مكدر » والظاهر أن استقرار حالة الامن حملت أحد أعضاء مجلس الشيوخ المصري على التصريح رسمياً بأن المحمل وحرسه أصبح بدعة يجب ابطالها ، وقد تألفت لجنة خاصة تنظر في هذه المسألة

على أن هناك رأيا آخر هو أنه اذا استقر الرأي في نهاية الامر على منع سفر المحمل فليس من العدل أن يحرم فقراء الحجاز من المبرات وخيرات الواقفين التي اعتادت مصر ارسالها إلى الحجاز من قديم الزمان ، ولعل ذوي النظر البعيد من ولاة الشأن في مصر سيراعون هذه النظرية بما تستحقها من العناية والاهتمام .

مصر في الحجاز

ان مصر لتتيه فخراً بين أمم الاسلام التي تحج الحجاز بوجود التكية المصرية والمستشفى المصري التي يخفق عليهما العلم المصري على الدوام بصورة تشعر العالم الاسلامي أن مصر ذات الأثر الخالد والمجد التالد في المكرمات السباقة إلى رعاية حقوق الانسان لها ذلك الأثر الناطق على مقربة من أشرف مكان يهتدي اليه المسلمون من مشارق الارض ومغاربها ، فلقد هزني الفخر بحق عند مازرت دار التكية المصرية التي يديرها مواطننا الفاضل ابراهيم صبحي نجاتي افندي وألفيتها لاتختلف عن إحدى إدارات الحكومة المصرية بالقاهرة نظاما ، ورجالها يقومون بتوزيع الطعام من خبز ولحم وأرز على جيش من البؤساء والمعوزين صباح كل يوم فتسمع أصوات ذلك الجيش

وهم ينصرفون تتصاعد بالدعاء لمصر وجلالة مليكها ، وماذا أقول في ذلك المستشفى الذي يضم بين جدرانه مئات المرضى بمختلف الاسقام والأدواء وهم يعالجون بمزيد العناية والرفق وتصرف لهم الادوية والعقاقير والاطعمة الصحية بسخاء عظيم أضف إلى ذلك عناية حضرة الدكتور البارع عبد الهادي بك خليل الذي يواسي المرضى برقته ويحنو عليهم بعلمه ورعايته . وعندي أن وجود مثل هذين المعهدين الانسانيين لخير من ألف تمثيل سياسي لاطائل منه

في جدة

قد انتهينا من رحلتنا واستوعبنا ما يهم قومنا و بلادنا الاطلاع عليه واعتزمنا مبارحة مكة فودعنا سمو الامير فيصل الذي كان على الدوام لايكف عن التلطف بنا والاستفسار عنا — ومن ثم استقلينا سيارة سارت بنا نحو ثلاث ساعات حتى بلغنا «جدة» بعد أن مررنا بقرية صغيرة تقع في متوسط الطريق تدعى « بحرة » وهي نقطة تتمون منها السيارات بحاجتها ومحط لرحال قوافل الحجاج الذين يستريحون فيها

وثغر « جدة » من أهم موانى الحجاز على ساحل البحر الاحمر وبسبب مركزها الطبيعي يعتبر أهلها أغنى من أهل مكة ومن سائر البلاد العربية في شبه الجزيرة وذلك لاتصالها بالاسواق الخارجية ،

ومرور البواخر القادمة من الهند ذاهبة إلى مصر وغيرها . ويحكم هذا الثغر حاكم يلقب «بالقائمقام» يعاونه رجال الشرطة .

وتوجد في جدة دور القنصليات وبعض المصارف المالية ، وتقع القنصلية المصرية في بناء فخم ، ولا يمر بجدة مصري حتى يلقى من عناية صاحب العزة أمين بك توفيق قنصل مصر مايطلق لسانه بالشكر والثناء ، ولا يوجد في جدة إلا عدد من الاوربيين الذين يعدون بمثابة « قومسيونجية » لاستجلاب البضائع من البلاد الخارجية وتوزيعها على التجار المحليين الذين يوزعون سلعهم في داخل البلاد

وجمرك جدة يعتبر ركناً مهما من موارد الثروة للحكومة الحجازية فان مايجبيه من الرسوم الجمركية على الصادرات والواردات مع فداحتها يكون دخلا عظيما لايستهان به

وطقس جدة لايعد ألطف كثيراً منه عن داخلية البلاد مع كونه على ساحل البحر الاحمر فالحر هناك شديد ، ولعل أبخرة البحر هي التي تفسد من جودة الهواء الخالص فليس يغبط أهل جدة وجودهم على الشاطيء اللهم سوى اغتباطهم بما يدخل اليهم من الارباح وتيسير أسباب الرزق لهم .

وإلى هنا تكون قد انتهت رحلتنا وحسبنا أننا كما قدمنا للقراء لانبغي منها سوى إيراد الحقائق من الوجهتين العمرانيه والاجتماعية التي لم يسبق لسوانا معرفته والبحث فيه حتى الآن .

الخاتمة

هكذا تطورت الحال في مملكتي نجد والحجاز وتم لهما ذلك الاندماج المتين فخرجت «نجد» من عزلتها الطويلة عن بقية الشعوب الاسلامية المتحضرة واصبح مليكها هو صاحب الكلمة النافذة والصوت المسموع في الأراضي المقدسة وشئونها وبات اسمه علماً بين ملوك الاسلام يشار اليه بالبنان، وقد اثبت بالفعل لا بالقول انه جدير بهذا الملك المترامي الاطراف الجليل الشأن في عيون سائر المؤمنين، وانه بعد ان طهر الاراضي المقدسة من ادران المفاسد والمظالم التى نشرها رجال الحكم البائد استطاع ان يقطع دابر عصابات النهب والسلب ويضرب بعصا من حديد على ايدى قطاع الطريق، فأمن سبل الحج لكافة المسلمين ونظم شئون الصحة العامة، واقام حكم العدل بين سائر رعاياه لا فرق بين نجدي وحجازي. ومما لا ريب فيه ان بلاداً كهذه وقد خرجت من عزلتها ووضعت يدها بايدى جاراتها من البلاد المتحضرة

سيكون لها حظها من الحضارة بحكم المجاراة على ممر الايام

ومن يعلم ما كانت عليه الحجاز قبل ان يحكمها جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود وكيف كانت الفوضى ضاربة اطنابها واموال الناس وارواحهم في خطر دائم من اعتداءات البدو الحجازيين واستخفافهم بالنظام والحكومة القائمة بالامر وهذا ركب المحمل المصري كان على الدوام هدفا لاعتداء المعتدين، وفتك الفاتكين، فبات الحجاج يسافرون أفراداً وجماعات حتى دون أن يرافقهم حرس المحمل ثم يعودون دون أن يصيبهم أقل أذى. ولم يكن هذا شأن حجاج مصر وحدهم بل هي الحال مع سائر المسلمين الذين يحجون بيت الله الحرام

واذا كان كل شيء في اوله صعب فلا عبرة البته ببعض ما قام من وجوه الخلاف في الرأى بين الحكومتين المصرية والحجازية بشأن المحمل المصري وقد يأتي وقت تضع فيه حكومتنا البلادين اتفاقا متينا يرتب شئون الحج ومراسمه في المستقبل وطبقا للتطورات الحادثة بين الامم والآراء العامة

وكذلك فاذا كان بعض الذين لا يحلو لهم الصيد إلا

في الماء العكر قد زين اليهم ان يثيروا العواصف ويشيعوا الاكاذيب عن حكم الحجاز وآراء الوهابيين الدينية قصد تنفير الامم الاسلامية من حكم جلالة الملك عبدالعزيز فحسبنا ان مثل هذا وأكثر منه يقع عادة بين سائر الامم ولا سيما عقب الفتوح والانقلابات السياسية ولسوف يدرك هؤلاء واولئك من حسن نيات الملك ابن سعود وضروب الاصلاح في بلاد الحجاز ذاتها مايسكت ألسنتهم وينطقهم بالحق من حيث لا يشعرون . على ان دعاة هذه الدسائس والحمد لله ليسوا من البراعة والدهاء ما يخشى شرهم ويؤثر سوء فعلهم بجلهم من حثالة الناس أو أذناب الحسين وأنصاره ممن لا يعتد بشأنهم ولا يؤبه بحالهم

وإنا لنسأل الحق جلت قدرته أن يكتب للاسلام والمسلمين اتحاد الكلمة ورفع راية الاسلام بين الأنام وأن يوطد دعائم الحب والولاء بين ملوك الناطقين بالضاد وأمرائهم وأن يوفقهم الى مافيه رضاة الله ورفع شأن المؤمنين بمنه وكرمه .

« انتهى »

(تنبيه) وقع خطأ في صفحة ٣٢ سطر ٧ (وأظن أنها) والصواب (وهي)